

الباب الثالث

العالمية في الدعوة الإسلامية سارية في فرائض الإسلام وتعاليمه

١ - الإيمان بالله واليوم الآخر

٢ - الصلاة

٣ - الزكاة

٤ - الصوم

٥ - الحج

٦ - الأخلاق والآداب

obeikandi.com

تعريف بالباب الثالث والرابع

من المعلوم أن الإسلام حقيقة كاملة تشمل كل ما يتصل بشئون العقيدة والعبادات وما يتعلق بأمر السلوك والمعاملات ، حقيقة تشمل شئون الحياة وتحيط بها جميعاً .

وفي حديثنا عن العقيدة سنقتصر على الإيمان بالله واليوم الآخر ، إذ هو الأصل في الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ناظرين إلى هذه العقيدة من حيث آثارها في شئون الحياة لنرى معها أنها عقيدة تهيم الإنسان لهذه الحياة أولاً ليتخذ من صالح عمله فيها زادا يصل به إلى نعيم الآخرة .

وفي العبادات بعد حديثنا عن الإيمان بالله واليوم الآخر سنقتصر الحديث على الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وسيرى القارئ أننا لم ننظر إليها على أنها وحدها عبادات ، بل إن كل عمل من الأعمال يرتبط بالإيمان ويصدر عن اليقين عبادة . لا تفرقة فيه بين شئون الدين وشئون الدنيا ، الكل في الإسلام دين ما دام مرتبطاً بالإيمان واليقين .

ثم نتحدث عن الآداب والأخلاق لأنها ذات صلة وثيقة بالعقائد والعبادات ، وهذا ما ضمه الباب الثالث - عقائد - عبادات - سلوك وأخلاق .

أما شئون المعاملات من سياسية واقتصادية واجتماعية ، سواء منها ما يتعلق بالفرد في أحواله الخاصة وما يتصل بالمجتمع في شئونه المختلفة وما يرتبط بعلاقة الدول في المحيط الإنساني العام فقد أفردنا له الباب الرابع .

ولم نعنون له باسم المعاملات ، وإنما سقناه في قضايا عامة تواجه البشرية وتقوم من أجلها المذاهب المختلفة .

وسنرى نظرة الإسلام لهذه القضايا وما تواجهه الإنسانية من مشاكل .

والحق أن الإسلام حقيقة متكاملة تقوم في الوجود الإنساني قيام الشمس في عالم الطبيعة تتفاعل مع الكائنات في يسر وتنسكب على المخلوقات في سخاء ، فترى من آثارها في الكون ما ترى : في النبات ، في الحيوان ، في الإنسان . الكل يتقبل منها على حسب طاقته وفي حدود منفعته وهي تجود ، وفي مدارها المرسوم لا تحيد عن غايتها ولا تميد ، سبحانه من خلقها وسخرها ، وأرسل للنفوس سراجها وهدايتها ، فجعل حياة النفوس ديناً ، ودين النفوس حياة . وأنت تعرف أن الحياة « حياة الأجسام » ترتبط بروح هي من أمر ربي ، وكذلك الحياة « حياة النفوس » ترتبط بدين هو من أمر ربي : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

والروح تظهر بآثرها في الإنسان سمعاً وبصراً وإدراكاً .

والدين يظهر بآثره في النفوس عدلاً وإحساناً وطهراً وبراً .

وإذا أنت تأملت أي جزء من أجزاء الكائن الحي ألفت أن الروح عاملة فيه ، وكذلك الدين إذ أنت نظرت في حقيقته ألفت قائماً بآثره في أية قضية تعرض وفي أية جزئية ترد .

لذا فإن الباب الرابع الذي نتحدث فيه عن مشاكل الإنسانية وقضاياها

لا يمكننا أن نقول معه : إن في الإسلام جزءاً يسمى المعاملات ، بل نقول : إن الإسلام حقيقة تبعث الحياة في العقل والوجدان فتسمى عقيدة ، وفي الأركان فتسمى طاعة ، وفي شؤون الخلق فتسمى معاملة .

حقيقة لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها ، أو تسميتها بغير حقيقتها « الإسلام » . وهي كما قلت كحقيقة الشمس في عالم الطبيعة تعمل في أجزائها المختلفة ولا يمكن تخصيصها لشيء من أجزاء الطبيعة أو تسميتها به .

هي سبب في استكمال الزرع وليست زرعاً ، وفي نضج الثمر وليست ثمراً ، وفي إضاءة القمر وليست قمراً ، سبحان من جعلها لكل ذلك سبباً .

ويمكنك على ضوء هذا أن تقول في مجال الدراسة :

الشمس والنبات : لتتعرف على أثر الشمس في النبات .

الشمس والإنسان : لتتعرف على أثر الشمس في جسم الإنسان .

وكذلك نحن هنا نقول :

الإسلام والفرد : لتعرف أثر الإسلام في حياة الفرد .

الإسلام والمجتمع : لتعرف أثر الإسلام في حياة المجتمع .

الإسلام والعلاقات الدولية : لتعرف أثر الإسلام في علاقات الدول بعضها مع

بعض .

الإسلام والعلم : لتعرف أثر الإسلام في المعارف الإنسانية على اختلافها

وتنوعها ، وهكذا في كل ما يعرض من مشاكل وما يرد من قضايا .

ولذا سنرى أن الباب الرابع وثيق الصلة بما سبقه من أمر العقيدة والعبادات

والأخلاق ، لأن الحقيقة الواحدة عاملة في الكل ، في وجدان الإنسان بالطمأنينة واليقين .

وفي أركانه بالطاعة والانقياد ، وفي سلوكه بالطهر والأخلاق ، وفي معاملته بالحق والعدل وكل ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله .

وإذا كانت الشمس في عليائها تمسك عالمها بإذن ربها وتؤلف بين كواكبها بإذن خالقها وتجعل من مجموعتها وحدة متماسكة بسر باربها - فإن الدين يمسك بزمام الإنسان كله ، ويجمع الإنسانية على طهره وبره ويوحد بين الخلق بوحدانية ربه ، وخالق الشمس هو منزل الدين ، كلاهما أثر لقدرة وحكمة رب العالمين .

وإذا كانت للشمس حقيقة قائمة ساطعة يشار إليها بالبنان فإن لحقيقة الدين كتابا قائما مشرقا مبينا مباركاً محفوظاً هو القرآن .

وسنرى أن الروح العالمية لهذا الدين سارية في كل أمر من أموره : ملاحظة في كل قضية من القضايا التي تعرض له .

سنرى عالميته في صلاته ، وصومه ، وزكاته ، وحجه ، بعد عقيدته .

سنراها فيما يطلبه من سلوك وما ينشده من خلق .

سنراها في نظرته للفرد ، وفي علاجه لمشاكل المجتمع وعلاقة الأمم ، وفي شعونه الاقتصاد وعالم السياسة ، وفي مجال العلم والمعرفة .

إن الشمس هنا وهناك في الشرق والغرب حقيقة واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل . والدين الخالد هنا وهناك في الشرق والغرب لا يمكن إلا أن يكون حقيقة واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل .

الدين للجميع لا يختص به جيل دون جيل ، ولا يمكن أن يكون لقبيل دون قبيل : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَجِئَ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة يس : ٧٠] .

وبعد هذا التعريف بالباين : الثالث والرابع . نبدأ معتمدين على الله في الحديث عن الباب الثالث .

مبتدئين بالإيمان بالله واليوم الآخر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ
 لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوْا قُلُوبَهُمْ وِجْلَةً
 أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
 وَهُمْ لَهُمْ سَائِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٧ - ٦١]

(١) الإيمان بالله واليوم الآخر

نود أن نعرف أولاً من أمر الحياة أن الناس يمرون بالدنيا ولا يقيمون وأنهم جاءوا إليها بلا اختيار ، وسيخرجون منها أيضاً بلا اختيار : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [سورة لقمان : ٣٤] .

وأن الإنسان لا يعيش وحده بل يمضي في جيل يرى أمره بين إقبال وإدبار وحل وترحال ، يستقبل ويودع ويأنس بمن يأنس ، ولا يلبث أن يُشيع أو يُشيع .
 وأن الإنسان يمضي في سلسلة متصلة الحلقات قد تتفرع وتمتد هنا وهناك ، ولكنها موصولة على كل حال ، تنتهي إلى أصل واحد وهي مسوقة إلى نهاية واحدة ، هناك إذن مصير عام مشترك ، وتشابه وتشابك يدعو إلى مبادئ عامة تؤلف وتجمع ، وتبر وترحم وترعى إنسانية الإنسان ، وتسخر كل شيء لخدمته ، فيحيا الناس في ظل فضائل النفس أخوة متعاونين ضيوفاً على الله متحابين متصافحين .
 هذه المبادئ لها ما يعينها من صلة الرحم ، إذ الناس جميعاً أخوة لأب واحد ومن صلة الرحمة إذ هم جميعاً أثر لقدرة الواحد الرحمن الرحيم .

ومن هنا نستطيع أن ندرك المبادئ التي تنظم الحياة كلها ، فتبقي على الإنسان إنسانًا بفضلائه وإيمانه وخلقه ، ولا تحوله حيوانًا شرًا بغيرائه وضاوته وشهواته . وتصور ما يكون عليه مجتمع ينقلب أفراده إلى ذئاب تربص وتفتك وتحيا معتدة بالظفر والناب .

لنا إذن أن نتعرف إلى المبادئ التي ترعى إنسانية الإنسان ، وتحفظه حرًا فاضلا عاملا كريما ، آمنا مطمئنًا بلزًا رشيدًا ، متعاونًا صادقًا وقيًا رحيماً .

المبادئ التي لا تنقلب الحياة معها مسرحًا للوحوش الضارية ، والذئاب الغادرة ، والطباع الخسيسة ، والشهوات الرخيصة .

المبادئ التي تحقق أبر ما يطلبه الناس من عدل ، وما ينشدونه من حرية ، وما يرجونه من رحمة ، وما يحلمون به من أمن وسلام .

ولعل الإنسانية في عصرنا هذا وقد عاشت في ظلام المادة واكتوت بلهبها المسعور ، فهي في أوج حضارتها تدمر ما تعمر وتسوق الفناء إلى ما شيدت من بناء ، لعلها وهي في حيرة الظلام وظلام الحيرة - تلتمس النور والضياء ، لتحيا آمنة مطمئنة بعد أن سلبتها حضارة المادة استقرار النفس ، وستجد في خصائص إنسانيتها التي جمعها دينها وإسلامها المشكاة الهادية التي تبصر الإنسان بأخيه فلا تتركه يتردى في ظلام القبور !

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

[سورة الحج : ٤٦] .

ولنا أن نقرر : أن الإنسانية لن تجد هذه المبادئ التي توحد جمعها وترعى سلامها وتؤمن إنسانيتها إلا فيما بين الإسلام من عقيدة وما فرض من فرائض وما شرع من أحكام ، ولتر ذلك أولاً في عقيدة الإسلام الخالدة .

١ - الإيمان بالله واليوم الآخر : فإننا إذا تأملنا هذه العقيدة راعنا من أول

وهلة اتصال حياتين :

حياة مؤقتة : نعرف أمرها ونرى مصير الأحياء فيها ، وهي الحياة الدنيا .

حياة باقية خالدة : والإقامة فيها دائمة متصلة ، وهي تبنى على سلوك الإنسان في الدنيا ومدى استعدادها لها .

واتصال الحياتين أولاً يهذب الأولى ويضمن السلام والاستقرار في الأخرى ، وانفصالهما في الاعتقاد يشيع الفساد في الأولى ويذهب بأمن الأخرى واستقرارها وتأمل حياة إنسان يدرك أنها « دنيا فحسب » . لا بد من المكاثرة والمغالبة ، لا بد أن يحظى منها بأوفر نصيب ، بأي سبب ومن أي طريق .

فمرحبا بالظلم إن حقق لذة ! ومرحبا بالعدو إن أحرز غنيمة ! ومرحبا بأية صفة تأتي بمنفعة ذاتية عاجلة ! بل واحسرتاه إن فاته المطلوب أو أبطأ المرغوب ! وسلوك هذا شأنه لا بد أن تسود معه شريعة الغاب وأن تتحكم فيه طبائع الوحوش ! بيد أن الإنسان في طفغيته أمضى من الوحش في تديبه ، وأقوى منه في التواءه وخبثه ، إذ هو يخضع لضاروته وشهوته .

الحيوان إن شبع امتنع ، والإنسان الانفصالي إن شبع جشع ، وإن ارتوى ظمى ، وإن امتلأ تطلع ، وإن تطلع بغى وعريد ، وإن عريد طغى وأفسد ، وهي في نظره دنيا فحسب إذا غاب رقيب الدنيا فلا رقيب وإذا لم تنله يد البشر فقد فاز في ميدان المغالبة والمكاثرة بأوفر نصيب ، الحيوان لا يحتكر طعاما وقد شبع ، والإنسان الانفصالي يحتكر طعام بلد أو أمة ، لأن شراسته تأتي عليه إلا أن يكون كذلك ، يحيا بدماء الناس وهو رضي ويأبى إلا أن يضرب على أنفاسهم وهو في عرف الانفصال « ذو حظ ندي » .

انظر ما يكون عليه حال الدنيا فحسب على يد أناس ظنوها كذلك فانحصروا في دائرة أنفسهم وأنانيتهم ومطالبهم التي لا تحد ولا يعرف لغريزة التملك فيهم أي حد .

أول ما تفقده الدنيا على يد هؤلاء الأمن والسلام ، والراحة والطمأنينة ولا تسلم عن الوفاء والصدق ، والإيثار والحب ، والعدل والحق ، والبر والرحمة ، فهي صفات عند هؤلاء تذكر إن جرت مغنا ، وتنكر إن حملت مغرما !

كل هذا يقع حين يتم الانفصال في الاعتقاد ، أو بمعنى أوضح حين يكون السلوك على أنها دنيا فحسب ، ومعناه خراب فحسب ودمار فحسب ! وهذا ما نلمسه فعلا في عصرنا الحاضر على يد أصحاب الحضارة المادية الذين وقفوا عند حدودها ، فغالبا عليها ، وفجروا من أجلها . غير أننا إذا تأملنا ما ينتجه اتصال الحياتين راعنا من أول وهلة سبيل الإسلام السوي في إفاضة الخير على الناس ، وإشاعة البر بينهم . وهو يحقق ذلك بالمبدأ الخالد : « الإيمان بالله واليوم الآخر » .

حياة متصلة ، تخف هنا بحق حدة التوتر ، فلا تباع صفات الإنسان في دنيا المغالبة والمكاثرة وقد وعدت النفوس : ﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ • حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ • كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التكاثر : ١ - ٤] هنا تجرد الإنسان المعتدل الذي لا تطغيه النعمة ، ولا يذله الفقر إن أقبلت الدنيا بنعمائها سخرت لمنطق الإيمان الرشيد الذي يدرك ما للنعمة من أثر ، وأن الإنسان بها مبتلى ومختبر . منطلق الإيمان المتبصر المستنير حين يرى نعم الله تفيض من كل جانب . الجبال تؤوب ، والطيور تسبح .

الشياطين تعمل بمجد وإخلاص ما بين بناء وغواص . والريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب .

علم سليمان منطق الطير وأوتي من كل شيء : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النمل : ١٦] .

في ملكه من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه ، وفي ملكه من يأتيه بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه .

منطق الإيمان الرشيد مع هذا الفيض من النعم : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] .

هنا تجد أثر الاتصال بين الحياتين : اليقظة الكاملة ، والإدراك السليم لحقيقة النعمة : ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

والنفس لا تجد جزاء شكرها بحق إلا هناك : ﴿ يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

في ظل هذا الاتصال تجد الخضوع للخالق والاعتراف بفضله ، فتجد البر الصادق بعباده في سخاء لا من فيه ولا أذى ، فتمضي النعمة في طريقها الطبيعي خاضعة للمثل العليا ، خاشعة للإيمان بالحق ، لا تتغير معها النفوس بين إقبال وإدبار ، بل تتغير هي بفعل النفوس البارة إلى بر ، ويعمل القلوب المجاهدة إلى سلاح على البغي .

تأتي النعمة مع هذه النفوس وتلك القلوب إلا أن تتحول إلى معنى التواضع والعدل والبر والرحمة والجهد والبذل والتضحية .

وهذه صفات النفس المستقرة التي أقبلت عليها النعمة فأبت إلا أن تتخلق وتخضع لصفات النفس وتمشي في ركابها خادمة طيبة .

وتطويع النعمة للصفات أمر لا يعين عليه إلا الإتصال بين الحياتين إذ يدرك الإنسان معه أن النفس خالدة في معانها

فهي من خيرها في خير أبدا ، ومن شرها في شر أبدا .

فهذا أثر من آثار الاتصال يتحقق معه الاعتدال الذي تطلبه الدنيا فتجده عند نفوس لا يطغىها الغنى ولا يذلها الفقر ، لأنها عزيزة بما لديها من الحق الثابت واليقين المستقر .

ولقد قلت : إن اتصال الحياتين في الاعتقاد يهذب الأولى ويضمن السلام في الأخرى وأضيف هنا : أن الاتصال يعمرهما معا ، يعمر الدنيا أولا بنفوس ترى إيمانها في سعيها وسعيها بدافع من يقينها ، فهي تعمل دائما في غير يأس أو قنوط ، وما كان اليقين دائما إلا باعثة على الأمل والعمل .

والأمل مع اليقين ليس شيئا مؤقتا يتحول إلى قنوط إذ أبطأ المطلوب بل هو مستقر استقرار اليقين في القلب يمتد ويتسع كلما عظم الكرب واشتد .

وتأمل عمل اليقين مع مؤمن فقد من البلاء بصره ، فجدد اليقين أمله وأفسح رجاءه : ﴿ يَا بَنِي آدَهْبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَسُوا مِنْ رُؤُجِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسَسُ مِنْ رُؤُجِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

وكأنني والله أرى في منطلق الرجل حركة النفس وحركة الحس معا : اذهبوا ، تحسسوا ، لا تيسسوا .

فأية قوة يمكن أن تقابل بها أحداث الحياة مثل هذه القوة ؟ وأي رجاء يمكن أن تستقيم معه شغون الحياة بعد هذا الرجاء ؟ بل أية حركة عاملة مهذبة يمكن أن تنبع من نفس المصاب فتدفعه إلى عمل الدنيا والآخرة ولا تدعه يهوي صريع الألم واليأس والانقباض والحسرة ؟

لا أخال الذين يتحدثون عن التواكل في ظل هذا الشموخ الفذ للعواصف الهوج إلا قوما طلبوا الدين في جثث الموتى الذين كتبت على قبورهم إعلانات مظلومة « مسلمون » . ولو طلبوه في تربته الحقيقية وأخذوه من معينه الأصيل لوجدوا أنفسهم

أمام حركة لا تهدأ ، وإزاء فطرة رشيدة تتخذ من تعمير الدنيا واكتشاف مكنوناتها سبيلا إلى الخشوع في محراب الخالق والتوصل إلى جناته ، ووجدوا أن الحركة هنا ليست لغرض محدود أو رغبة طارئة ، تتوقف إذا تحقق الغرض ، وتنتهي إذا انتهت الرغبة بل هي كما قلنا حركة الدوام ودوام الحركة موصولة باتصال الخلق متصلة بدار الحق .

وفي مجال الحركة الدائبة الموصولة المتصلة يذهب الفقر إذ هو من شهوات النفس وقد استقام أمرها وطاب سعيها ، ويختفي الجهل في مجال السعي في كل سبيل . فنحن نرغب في العلم ونطلبه فرضا ولو في الصين ، ونبدله بارين غير طامعين ولا مغتصبين .

ولا مجال للمرض في أرض وئد فيها الفقر ، وشاع العلم والتقى الناس على خير وبر .

وتلك المنغصات الثلاثة التي جلبها فقر النفس ، حوربت في ظاهرها ولم تقتلع من جذورها .

وفقر النفس لا يعالج بالمعونات المغرصة والهبات المفتعلة والمنح الطارئة تبذل هنا أو هناك ، بل يعالج يقينا بالعنصر الفعال : « الإيمان بالله واليوم الآخر » . وهو عنصر يرفع العازل عن القلب من شهوات الهوى وضلال الإثم ، فتلتقي الفطرة بعزمها وغناها فتفيض بالخير وقد اتصلت بمبدئه ، وهي ترجوه بسعيها وتقصده .

وأراني بدأت باليوم الآخر من حيث نتائجه ولم أتحدث عنه من حيث حقيقته أو صدق وقوعه .

أما وقد استبان النتائج الطيبة التي يجنيها الناس في دنيانا تلك من اتصال الدارين وتأثر السلوك به .

فقد وجب أن نتحدث عن الإيمان بالله لنذكر منه حقيقة اليوم الآخر ، وأنه صدق واقع .

فما اليوم الآخر في الاعتقاد إلا وليد الاعتراف بالأول والآخر والظاهر والباطن وأنه بكل شيء عليم وهو على جمعنا إذا يشاء قدير .

لكنني سارعت إلى نتائج اتصال الدارين لأن الناس على الدنيا مقبلون ، ومن دواعي الاغراء أن يطمئنوا على دنياهم وقد أحبوا ، فيقبلوا على ما يعث الأمن والطمأنينة فيها .

وعلى طمأنينة الأمر وراحة الأمن نقدم قضية « المنطق والوجدان » ، « قضية الإيمان بالله » .

جرى على لساني وأنا طفل صغير دون العاشرة كلمة لم ألق لها بالا . ما زلت أشعر بالسعادة تغمرني كلما ذكرتها .

قال لي خالي مداعبا وكنا في حقله : إما أن تعمل كذا أو تنصرف من أرضنا .

فقلت له : إنها ليست أرضك ، وإنما هي أرض الله .

وظل رحمة الله يذكرني بها حتى بعد تخرجي من الأزهر .

وكلما تقدمت بي الأيام شعرت بجلال الكلمة وصدقها .

فقد مات الرجل رحمه الله وبقيت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .

وزاد من تقديري للكلمة أن العقل شارك الوجدان في صدقها والترحيب بها .

كل شيء في الوجود هاتف بجلال الله خاشع بعظمته مسبح بحمده .

ولم أر في طبيعة المخلوقات عصيانا من حيث الفطرة : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي

لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدْرَانَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ ﴾ [سورة يس : ٣٨ ، ٣٩] . ونرى أفواج العباد تقبل لتري من آثار قدرة الله

ولا تلبث أن ترحل .

ولم نر إنسانا حاز شيئا مما أرى أو ملك شيئا مما أبصر .
 وكان من الواجب أن يكون لهذه الآيات الكبرى أثر في السلوك الإنساني أي
 أثر .

ولنا أن نتساءل أو نسائل هذا الركب السائر : إذا لم يكن هذا الكون لله
 فلمن يكون ؟
 للإنسان ؟

الحق أن الإنسان مستخلف وليس بمالك ، فكيف يبقى المملوك ويذهب
 المالك ؟

وإذا انتفى أن يكون للإنسان فلمن يكون ؟
 ما صدق على الإنسان يصدق على المخلوقات الأخرى !
 هل يمكن أن يملك الشيء نفسه ؟ هذا ساقط بداهة في منطق العقل
 فلا يمكن قيامه في مجال الواقع .

هذا الكون لا بد له من مالك مدبر ، وإذا نحن ساءلنا الوجدان عن مالك
 الكون أجابنا أنه الرحمن .

ولو طالبنا منطق الفكر لأثبت أنها قوة مصرفة غالبية ، تلك التي تصرف الليل
 والنهار والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب .
 قوة إذا استقصينا أثرها وجدنا من صفاتها الوجود الدائم والقدرة والإرادة
 والسمع والبصر والحياة والعلم والحكمة .

ولم أر الوجدان والعقل التقياً على قضية من القضايا فسما كلاهما ظاهرين
 بحكمة اليقين ويقين الحكمة إلا في قضية « الإيمان بالله » جل وعلا .

كما لم أر خلقاً دل على خالقه كما دلت مخلوقات الكون مرئياً وخفيها في شتى

صورها واختلاف ألوانها على عظمة الخنازق وقدرته

ومن رحمة الله بالناس أن يظهر هم بآثره وأن يدركوه في خلقه حتى لا يتوقف عمل الفكر وتحجب خصائص الإنسان

ويدهي أن وجود الأثر العظيم من غير أن يظهر المؤثر أقوى في النتيجة والدلالة وأدعى لإبراز الخصائص وشحذ الهمم والعزائم من ظهور مؤثر لا أثر له (١) .
أو ظهوره مع أثره ، وفي هذه الحالة يستوي في معرفته أعلى الحيوانات وأدناها كما تتوقف الحضارة التي هي نتيجة بحث دائم وعمل مستمر وراء الحقائق الخفية التي كلما اكتشف شيء منها تطلع العقل البشري إلى حقيقة أكبر ، وهكذا يأتي الأثر بصورته المحكمة المتقنة إلا أن يدل قطعا على المؤثر .

فالكون باتساقه العجيب يخدم قضية الإيمان مع تسخيره لراحة الإنسان :
﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ •
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ • تَبْصِرَةٌ
وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سورة ق - ١٨]

قضية الإيمان إذن « قضية فكر ووجدان » .

وهي في الإسلام ليست بمعزل عن الحياة ، تصاغ في نظريات فلسفية أو عمل فكري تدفع معتنقيها إلى رهبة العزلة أو عزلة الرهبة فتنتكر بذلك لغرائز الإنسان وطبيعته وتأتي عليه أن يجام متعاوناً مع فطرته ، لا .

ليست قضية الإيمان في الإسلام كذلك ، وإنما هي فطرية سمحة ، حنيفية معتدلة هي عمل الفكر في الكون للانتفاع بما فيه ، وعمل الكون في الفكر بآيات تدفع على اليقين فلا يفتره ولا يدعيه .

(١) باطلة منطقياً وواقعياً

قضية الإيمان في الإسلام ليست بمعزل عن الحياة ، وإنما هي الحياة نفسها ممثلة في اتساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه ، وهي تقوم في المصنع بالإتقان والإحسان ، وفي المتجر بالصدق والأمانة ، وفي المزرعة بالصبر وحسن الرعاية ، وفي كل عمل بيقظة الضمير وخشية الخالق .

هي قضية تدخل إلى حياة الفرد والأسرة والمجتمع بالقول والفعل كما هي في الفطرة والخلق فلتلقي الفطرة مع السلوك ويمتزج عمل الدنيا بحياة الآخرة .

قضية الإيمان في الإسلام قضية بر ووفاء ، وحب وإخاء ، قضية عصمة الفرج بزواج كريم لا برهينة أو سعي أئيم ، قضية العصمة للفكر باليقين لا بالشك والإلحاد ، قضية طهر اللسان وسلامة الوجدان ، قضية اليد البارة والعين العفيفة والسمع الطهور ، قضية الإيمان في الإسلام ، قضية فرد ومجتمع ودولة ، قضية سلم وحرب ، قضية جهاد وبذل ، قضية سيف وقلم ، قضية عرب وعجم ، قضية شمول وإحاطة ، قضية نظام وسياسة .

وهي لهذا تفتن باليوم الآخر .

فيتم للمقدمة الصادقة وفاؤها بالنتيجة القاطعة .

والمقدمة هنا تفي بالنتيجة قطعاً ، دنيا لا بد من آخرة .

خلق عجيب ونظام دقيق لا يمكن أن يكون عبثاً .

إنسان يحيا هنا ظالماً أو مظلوماً ممتلئاً أو محروماً في كون آياته الكبرى لا تنظم ولا تعيد : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة بر : ٤٠] يأتي من أقام هذا النظام وخلق الإنسان إلا أن يسوقه لساحة العدل ، وأن يدخر أمره لميقات يوم : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة بقره :

٣٠ ، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] .

الدنيا مقدمة ، والآخرة نتيجة ، وإذا صدقت المقدمة بالإبتلاء والإختبار فلا بد أن تفي النتيجة بالحساب والجزاء وهو أمر بدهي في منطق الإيمان المستبصر المستنير ، ولكنه عصي في غيبة الإيمان بالله العلي القدير .

كيف لا والله الذي دبر أمر الدنيا بالخلق والإيجاد ، وقامت آياته البيّنات تشهد له بالإحاطة والتدبير والعلم والقدرة - قد جعل لدار السلام والإستقرار مقدمة سعي مشكور وعمل بار ، زودهم فيها برسله وآياته وكتبه لترتفع من حياتهم وحشة الظلم ، وتمضي الفترة في أمان العدل والبر والحق والتعاون والحب .

كيف يرضى الخالق القوي القادر الذي حرّم الظلم على نفسه أن يترك هذا الخلق بلا حساب وإنصاف وقد قامت آياته في الكون على النظام والعدل ؟

حاشا لله أن يكون خلق الإنسان لهذه الفترة التي استحالت فيها نعم الله على يد البشر نقما تشيع في الأمم الذعر والخوف وتذهب بالطمأنينة والأمن !

لا بد من حساب بين يدي الخالق ، رب الدنيا والآخرة ، وهو رقيب محيط يعلم أمر الخلق ولا تخفى عليه خافية ، يقوم على الآخرة والرقاب له خاشعة .

نؤمن به هنا فتستقيم الحياة ، وتمضي في موكب خاشع لساحته فنجد جزاء السعي : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] ، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٩] .

وقيام الأمر على هذه الصورة الكاملة الصادقة يجعلنا نتقبل الحياة هنا بيسمتها وبكائها وعطائها وحرمانها ، ولقائها وفراقها ، موقنين بأنها تمهيد لغاية ، وأنها بيد الله

وحده الذي نتقرب إليه بالكلم الطيب والعمل الصالح .

ف نجد الإيمان به يضع لنا في كل شيء خلقه : في المصيبة خلق الصبر ، وفي النعمة خلق الشكر ، وفي الصحبة خلق الوفاء ، وفي الجهاد رِف الغاية ، وفي كل عمل روح الإخلاص ، وفي النصر خلق التواضع ، وفي البذل خلق السخاء في غير منّ أو إيذاء ، وفي العلم خلقه بلا جدل أو مرأ .

وهكذا نجد الإيمان بالله واليوم الآخر يمنح الدنيا رشدًا وخلقها ، ويعطي الآخرة حظها ونعيمها ، ويمسك بزمام الإنسان راشدا في الدنيا موصولًا بالآخرة ، فتستبين الحكمة من الخلق ، ويرتفع العبث من منطق الفكر وعمل القلب ، فتمضي الحياة ندية بذكر الله ، وتأتي الآخرة مستقرة آمنة بوحى الله .

فالإيمان بالله خالق الدارين أمر لا بد منه لصالحهما معا .

والشرك بالله كما يسوق إلى الدنيا الخراب يورث في الآخرة الشقاء والعذاب :
﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٢١] .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا • قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى • وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه : ١٢٤ - ١٢٧] .

قلت : إن الإيمان بالله يضع في كل شيء خلقه ، أي يضع فيه عنصر النجاة ، إذ يجعل إنسانية الإنسان هي التي تسيطر على شئون الحياة وهي التي تسرع به إلى الخير عملا وتخليدا : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ • نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ • إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ •

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٥٤ - ٦٠﴾ [سورة المؤمنون : ٥٤ - ٦٠]

ولم أر سفينة برت بصاحبها وأمنته من العواصف الهوج والأمواج المظلمة الصاخبة مثل ما فعلت سفينة الخير ، سفينة الإيمان بالله : برت به في الدنيا فطردت اليأس من قلبه ، وبعثت الطمأنينة فيه بذكر ربه ، وجعلت الأحداث تبنيه ولا تهدمه ، والمصائب تعليه ولا تصغره .

أقامت في نفسه الغنى فبذل ما في يده للناس ، وأحاطت نفسه بالقناعة فطمعت في الفضائل ، وهي بضاعة تزكو بالتنافس عليها ، وتنمو إذا أخذ الجميع منها .

غير أنها تربط بين طالبها برباط وثيق تجمعهم ولا تفرقهم ، تشيع بينهم الإيثار والحب وتقضي على عوامل الأثرة والبغض .

ولم أر جمعا توجه إلى سبيل واحدة فتوحده قصدا وعملا مثل الركب المتجه إلى الله ، فهو ركب تخشى ذئاب الهوى أن تقترب منه ، وتأتى نوازع الشر أن تنزل بساحته !

هو ركب يجير من استجاره ، ويفي لمن تعهد له ، يقول الحق ولو على نفسه ، ويعدل في حكمه مع ألد أعدائه .

هو ركب لا تربطه قرابة أو نسب ، فلربما كان الابن فيه وليس الأب ، لأنه رباط على الإيمان بالله وهو أبر حسب وأكرم نسب .

ويأى الله إلا أن يجعل للمؤمنين على يد نبي من أنبيائه سفينة تحملهم وتمضي بهم في موج كالجبال في دنيانا تلك ؛ ليدرك الركب الإنساني إلى أن تقوم الساعة ما لسفينة الإيمان من أثر وليأخذ من أمرها عظام وعبرا .

هذه السفينة تراها ساجدة خالدة على صفحة من صفحات الكتاب الفطري ، استقرت ليشهد الناس أمرها ، وبقيت ليدرك العقلاء سرها ، ودخلت ضمن من تكفل الله بحفظه ، وخلد ذكرها في قرآن يتلى فتخشع له القلوب ، وفرقان يتردد فتسمع في نعماته لحن الخلود ، لأنها سفينة الإيمان بالله .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿ [سورة هود : ٤٢ ، ٤٣] .

توهم العصمة في جبل يحميه ، ولم يدر أنها في عمل صالح يجد نفسه فيه .

وما كان للطوفان الثائر الغاضب الذي اشتركت في ثورته عيون الأرض ومنهمر السماء أن يهدأ أو ينسحب قبل أن يطوي في جوفه وظلامه من تنكر لإنسانيته وإيمانه .

أراد الله أن يجعل في تاريخ الإنسانية سفينة للإيمان تجري بالمؤمنين في موج كالجبال ؛ ليعرف قدر الإيمان ، ويدرك الناس أن الطبيعة زمامها بيد الله .

وهو يجعل من عمل الطبيعة المسخرة ما يحطم به أوثان الشرك وأوهام الباطل .

صرخة من قلب من آمن به ودعا إليه : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾

[سورة القمر : ١٠] .

أجيبت وهي تساق للأجيال ماضية بالعبير : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَجِرٍ ﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أُمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ وَحَمَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاجِ وَدُسِّرُ ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴿ [سورة القمر : ١١ - ١٤] أي والله تجري بأعيننا ، رعاية وحفظاً ، لسفينة الإيمان بالله وهي تجري وسط أمواج صاخبة مستعلية تبطش بالشرك ولو اعتصم برعوس الجبال أو طار مع النسور ، ولو كان المعتصم أو الطائر ابن نبي ورسول : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿ [سورة القمر : ١٤] .

والإنسانية اليوم يغمرها طوفان الهوى وتلاحقها أمواج الباطل في ظل الحضارة المادية الظالمة المظلمة ، وليس أمامها وهي تجرب سبل الإنقاذ وتكاد تلفظ أنفاسها الأمواج المتلاحقة والطوفان الغامر - ليس أمامها - إلا سفينة الإيمان بالله .

ولنتظر إلى حالها لتر صدق ما نقول :

إن أية حضارة تستهدف راحة الإنسان وكرامته « لأنها قامت به وله » فهل الحضارة المادية كذلك ؟

أين الإنسان أولاً في ظل الحضارة المادية حتى تستهدف راحته وكرامته أو لا تستهدف ؟

إنه مسخر لها وليست مسخرة له ، طوعته هي للآلة فأفسدت مشاعره وعواطفه ، وأطاعها فذهبت بأمنه وسلامته .

إن الإنسان في ظل الحضارة المادية عبد غريزة وشهوة لا إنسان فضيلة وخلق .

ثم هي تدعي أنها منحتة الحرية والمساواة في العالم الحر ، وحققت العدالة والرخاء على يد أتباع ماركس ولينين .

مرة أخرى أين الإنسان حتى تمنحه ما تدعي ؟

والمادة الغشوم تتوعده ليل نهار بالخراب المدمر والظلام المسيطر .

أين هو الإنسان وقد نزعته الحضارة المادية قوته الضروري وسلبته أمس خصائصه ، وملأت دنياه بالفرز والاضطراب ، وأشاعت في نفسه الغم والهم ، ثم ادعت أنها منحتة الحرية والمساواة وحققت له العدالة والرخاء ؟

نعم سلبت الحضارة المادية قوت الإنسان ، وتركته طريد بؤس وشقاء ، ثم حولت هذا القوت إلى مادة .

انطلقت باسم القوم في تجربة أشاعت بغبارها الموت البطيء لا للإنسان
فحسب بل للإنسان والحيوان والنبات والحياة .

وأصبح العالم في يومه وغده مهددا بعاهات خلقية من جراء التجارب النووية
التي يتفاخر بها ويتسابق عليها في إصرار أصحاب العاهات الخلقية عبيد الفلسفة
المادية .

قنابل ذرية ، تجارب هيدروجينية ، صواريخ عابرة للقار ، ، سموم تهب هنا
وهناك !

أخلاق القوم وضعت في مخازن وعاش القوم بلا أخلاق ، وتقدموا إلى
الشعوب يسليون قوتها ويغتصبون أرضها ، فإن هي استعصت أو أبت هذودها
باستعمال المدمرات !

ومن عجب أن تنطلق السنة القوم تعظ بأكية على السلام العالمي المههد وحرية
الشعوب المغتصبة ، تعظ من ؟

تعظ الفريسة ، فريسة الصراع بين قوى البغي والتسلط !

ثم بدا للقوم أنهم مهددون بمخزون الأخلاق ، فأخذوا يعظون الإنسانية بمخترها
ويطالبون بإيقافها وتدمير المخزون منها .

وأين الثقة في ظل حضارة المادة ؟

وتسأل عن الشعوب الصغيرة في حضارة المادة وسيطرتها ، فلا تلبث أن تراها
تحيا بأخلاق الصغار ، ولا بأس أن تتخلق بأخلاق الكبار ، إن هي ملكت مثلهم
أسباب الخراب والدمار .

عدوى المدنية سرت ، وخلق المادة تحكم ، وسلطان الهوى طغى وفجر !
ونسأل مرارا وتكرارا أين الإنسان الذي منحته الحضارة المادية الحرية والمساواة
والعدالة والرخاء ؟

فيجيبك الواقع أنه ضائع بين سهر الليل وكد النهار ، شارد بعقله وراء اللقمة الشاردة والعيش المفقود !

أين الإنسان يا أصحاب الحضارة المادية ؟

ربما أجابتك حضارتهم : بعد قليل سنمهد له سكنا في القمر وسكنى في البروج ، وستكون المواصلات هينة سهلة ، فسفينة الفضاء قد جريت مع الكلاب والقطط والفيران والقرود ، فيعود بالحكمة والمعرفة إلى عالم الأرض الذي لم يدر بعد أن رزقه مرتبط بالرحلة التي بدئت على أيديهم بالفيران والكلاب والقرود .

وهذا من حسن الطالع للسكن الجديد .

ومن الفأل الحسن أن يتبدل سواد الفأر ^(١) ، فلعل هذا يؤذن للإنسانية بأيامها البيض .

يا رجال الحضارة المادية ، اسكنوا الشمس ، اسكنوا القمر ، اعملوا ما شئتم ، ولكن خبرونا أين الإنسان الآمن المطمئن في حضارتكم ؟

يقول الكبار : ستجده مطمئنا هادئا بعد تجربة الفيран ، إذ ستتحول التجارب إلى غزو الفضاء ، وسيكون أول من يسعد بذلك هو الإنسان ، فالرحلة ممتعة والفضاء جميل .

وكأني برئيس علماء الذرة يقول : من هذا الذي يتحكم بالعلم وأهله وما صنع لراحة الإنسان ؟

وطاب لي أن أقول له : لم أع ما تقول ، لأن من ورأى زغبا جياعا ، بحث قوتهم فوجدته بين يديك سلب قسرا ، وجاء إليك لتخرجه من معملك جعيفا مسعورا تشيع به إلى باطن الأرض جياعا ، وتقضي عليها أن تمتد ما تلد ، وتلك

(١) من أنباء سفينة الفضاء : « أن الفأر ابيض لونه في الرحلة » .

أحدث طريقة للبر بوالد وما ولد .

لكنني أمسكت لأنني أدركت أن الرجل والد وله ولد ، ويأني الإيثار عليه
إلا أن يمدك مع أهله وذوي قرابته بما حصد .

وبادرنى سائل فقال : أتتكرون على العلم وثبته ؟

قلت : لا ، ولكننا ننكر حيرته ، نطلب هدفه وغايته !

قال : وهل بعد صعوده القمر ورجوعه منه بخبر تراه قد حاد عن الغاية وتنكر
للبشر ؟

قلت : يا هذا لا تظلم العلم ، فهو الآخر مهتد بالضياح على يد مَنْ بنعمة
الله قد كفر .

غاية العلم : معرفة الحق وهداية الخلق وسعادة البشر .

لكنه على يد الماديين أنكر الحق وأضل الخلق وأشقى البشر .

العلم أداة كاشفة ، ونور لا يعرف الأثرة ، ولا يرضى أن يتخلى أو تتخلف
عنه الأخلاق والمثل .

فهو يجب أن يؤمن نفسه وأن يسخر طائعا لسعادة الخلق وعبادة المنعم فهو
يجزي من شكر ، وهو يدرك أن أمر الجميع بيد الرحمن إن شاء خسف بنا وقد ساق
العبر .

لست أفهم لحضارة العلم بيننا بعد ما وهب الله مادته وأسبابه إلا دلالة واحدة
« معرفة الخالق ، وبر المخلوق » .

وكلا الأمرين مرتبط بالآخر لا ينفك عنه ، إذ لا بر بالمخلوق وقد جحد الخالق
ولا معرفة له وقد ظلم المخلوق .

ولا عيب على العلم في ذاته إذا الناس صرفوه عن غايته وحولوه عن هدفه ؛

فالشمس في عليائها وفطرتها تنسكب على الأرض بمنافعها تمد الناس بشعاعها ونورها فتجعل من ليهم نهارا ، ومن زرعهم وغرسهم جنة وثمارا ، فما على الشمس أن أهلك الناس الزرع وقتلوا النسل والضرع .

ما على الشمس إن أفسد الناس ما أصلحت ، وهدموا ما أقامت .

والعلم والشمس ، نوران ، نور يراه البصر ، ونور تدركه البصيرة ، وكلاهما هبة الله إلى خلقه ، وعطاؤه لعباده .

فإذا غابت الشمس أقبل ظلام الليل ، وإذا غاب العلم أفسد الحياة ظلام الجهل .

فلا تقولوا عن العلم شيئا ولا تظلموه ولا تفصلوا بينه وما يدعو إليه الدين الصحيح فتبطلوه .

لم يعرف التاريخ قط صداما وقع بين الدين الصحيح وحقائق العلم ، وذلك لأن الدين الصحيح يفيض على العلم من قدامته وتقديره ما يجيب النفوس إليه ويجعلها جديرة أن تذكر بعد الله وملائكته : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨] .

ولا عجب أن ترى الحق تبارك وتعالى يثبت الخشية منه للعلماء وحدهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] .

وليس المقصود علماء الشريعة فحسب ، بل المقصود كل صاحب علم يتوصل به إلى معرفة صحيحة ينتفع الناس بها في دينهم ، ويتعرفون عظمة الخالق وآياته ، فتهتف قلوبهم بالشكر لله والاعتراف بنعمته ، والعلم بهذا المعنى يقدهسه الدين ويرفع مكانته ، وهو العلم المشيد المعمر الذي يبني ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ويجمع ولا يفرق : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

والعلم لا يكون كذلك إلا إذا حملته نفوس مهذبة تحسن مراقبة الله وتحشى عذابه وتشكره على نعمه ، وتتقرب إليه في البر بخلقه .

وليس الدين بعد هذا مسئولاً عن تزمته المتمزتين أو جهل الجاهلين ، ليس مسئولاً عن الجهل يفرض عليه ، أو الهوى يتحكم فيه ، أو الجمود يقف حائلاً دون مده والانتفاع به .

فالدين الصحيح وحقائق العلم متحدان : فالأول يفيض على الآخر من قداسته ، والآخر يكشف عن سمو الأول وطهارته .

وهما على وفاق دائم طالما بقيت للدين صحته وسلامته ، وللعلم ثبات حقائقه واطراد نتيجته ، وسلما معاً من جهل الجاهلية وإفساد المفسدين .

ولعل في هذا رداً على من يريد أن ينال من الدين في شخص رجاله ، أو ينقص من قدر العلم لضيق خياله .

اقرأ أول سورة نزلت على محمد ﷺ تجد : القراءة ، العلم ، التعلم .

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٥] .

ثم قف متأملاً في قوله بعد ذلك : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي • أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ [سورة العلق : ٦ ، ٧] يا لله ؟ يجيء هذا بعد القراءة والعلم !

وهل ينكر منكر بعد هذا عظمة القرآن وخلوده وأنه كتاب الله للعالمين ؟ ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي • أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ .

ما العلاج إذن للطغيان الناشئ عن القوة والغنى الناشئين عن العلم ؟ ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ [سورة العلق : ٨] .

وربك ، إن هذه الآية وحدها تحمل مشكلة العالم الذي تجبر بالعلم ! وفجر

بالعلم ! وعربد بالعلم ! وأن المؤتمرات المنعقدة هنا وهناك لن تمنح سلطان العلم المادي أو طفيفانه ما دام قد انفرد ولم يحظ بخشية الله وعرفانه .

وليحرب العالم أي أمن تراه الدنيا ؟

وأي سلام نابع من ضمير الفرد مسطر في فؤاده بوحي من دينه وعقيدته يوم يقف عند هذه الآية ويعرف حدودها : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .

كثيرا ما تتعاهد الدول على شيء ثم تنقضه ، بل كثيرا ما تهتف بالسلام ثم تنقضه ، لكنها حين تقف عند حدود ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ستجد سلاما صادقا تحرسه القلوب وترعاه الضمائر ، إذ ليس في ظله مظلوم وظالم ، وليس أمام عدله محكوم وحاكم . كما تجد أمنا من وحي الإيمان تطيب به النفوس ، إذ لا تفرضه قوة غشوم ، ولا ينجني ثمرته مستبد ظالم ، بل يسعد به الضعيف ، وينشده القوي ، ويشدو به الطير وكأن الدنيا بالنسبة له « حرم آمن » ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ هي التي تحقق المعاني المظلومة التي يدعيها الماديون ، ولا تجد لها صدق في مجال التطبيق العملي : الحرية والمساواة ، والعدالة والرخاء .

كلمات تتردد على أفواه القوم ، يغرى بها السفهاء ، ويقع في شراكها البلهاء وهي كوحيدات الحب توضع للعصفور لتغريه بالقرب ، فإذا ما اقترب وطعم أمسك الفخ بالرأس أو القدم .

لكنها معان غير مكذوبة في ظل اليقين الثابت والإيمان الراسخ والخشية الصادقة ولن تكون شراكا لصيد أو زلفى لعبد ، بل من إيمان برب ، تعلم يقينا أنها راجعة إليه ومحاسبة بين يديه : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ تأمل أثرها في نفوس آمنت بها وبرت في إيمانها .

عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ « الإيمان بالله واليوم الآخر » .

بقدر ما حطمت من أصنام وأزالت من أوثان ، وأذابت من شرك - ظاهر

وخفي - مكنت للحرية الإنسانية في ظل مساواة فطرية مهذبة منشؤها أن الناس جميعا منتمون إلى أصل واحد فلا معنى للتفاضل بأصل أو نسب ، مخلوقون لخالق واحد ، الجميع أمامه سواء ، وهو ربهم وهم عباده ، أقربهم إليه أبرهم بخلقه وأخلصهم لطاعته .

هذه العقيدة الفطرية مزجت بأول نداء فيها « لا إله إلا الله » بين بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعثمان القرشي ، مع محمد الرسول النبي في إيثار وحب وألفة وتعاون .

مزجت بين أمم متنافرة ، وشعوب متقاتلة ، وأجناس مختلفة ، ذكرتهم بأصلهم الواحد ، وأيقظت فطرتهم فأمنوا بالله الواحد .

فلم تكن الحرية والمساواة عند هذه العقيدة دعوى كاذبة تفرق بين جنس وجنس أو لون ولون ، بل كانت نتيجة لعقيدة تحملها القلوب وتفتديها النفوس ، فهي نابعة من ضمائر الناس لا مفروضة عليهم .

فإن أغرى ابن عمرو جاه والده الأمير ، فضرب فردا من أفراد الشعب - في مصر - عملت هذه العقيدة عملها في نفس أمير المؤمنين في المدينة ، وألقى على الدنيا كلمة وعاما التاريخ ودوت في سمع الزمان : « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

وإن تخاصم يهودي مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثل الأمير والخصم أمام قاضيه .

فإذا نسي القاضي وكنى أمير المؤمنين بأبي الحسن غضب علي وهو المكرم وعد هذا تفضيلا في موطن القضاء ، ولأم قاضيه إذ لم يسو بينه وبين خصمه اليهودي !

لم تعرف هذه العقيدة قط تفرقة ، فما حابت ولا جارت ولا ظلمت ولا استبدت ، وهذا نداؤها دائما باسم الإيمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ [سورة النساء : ١٣٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [سورة المائدة : ٨] .

لهذا نرى الرسول ﷺ وهو يقيم حدا على شريفة سرقته . يأتيه حبه أسامة ليستشفع في الحد ، فيأبى الرسول عليه الصلاة والسلام ويقول غاضبا : « أتشفع في حد من حدود الله ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقته لقطع محمد يدها » . وتأمل الرسول ﷺ ، وهو ينصف الناس من نفسه ، ويعرض نفسه على رعيته : « أيها الناس ألا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ! ألا من كنت أخذت منه مالا فهذا مالي فليأخذ منه ! ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من كان له حق فأخذه ، أو حللني منه فلقيت ربي وأنا طيب النفس » .

الحرية ، المساواة ، العدالة ، الرخاء . هذه المعاني عند القوم أصيلة في عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ .

وسنرى مدى الأثر الذي تركته هذه العقيدة في التطبيق العملي في مجتمع صدق في حملها ، وأخلص في تقبلها ، وأوفى بعهدتها ، في الفصول المقبلة إن شاء الله . ومجمل الأمر أن عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر تحفظ إنسانية الإنسان وترعاه ، فتطيب بسعيه الدنيا ويمضي بارا راشدا حتى يلقى الله ، فيلقى جزاء عمله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وأود أن يكون معلوماً أن هذه العقيدة كما ذكرت ليست نظريات مجردة أو فلسفات منعزلة عن واقع الحياة ، بل هي كما قلنا الحياة نفسها ممثلة في اتساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه .

هي الحياة الندية بيقظة الضمير وخشية الخالق الباسمة لروضة الحق وجنة العدل المؤملة في ساعة الشدة ولحظة العسر ، المتواضعة السخية مع يسر النعمة ونعمة اليسر .

الحياة الصابرة الشاكرة الصادقة العادلة البارة المتعاونة المتحركة في اتجاه ثابت مع الحق ، تجود بالنفس ولا تحيد ، وتشرب الكأس ولا تميد . الحياة التي تمتد ولا تنقطع وتتصل ولا تنفصل ، ويجمع بين مراحلها الكلم الطيب وصالح العمل . ولكي تقيم هذه العقيدة نفسها في واقع حياة الناس تراها قائمة في برنامج عملي منظم يحقق أمرها بصورة فطرية جادة ، وهذه فرائض العبادات في الإسلام ومن مميزات هذه الفرائض :

أن كل واحدة منها متشابكة مع الأخرى ناهضة بأعبائها ، تتحمل الغاية التي تجتمع عليها الفرائض جميعاً .

وهي في تحملها كأنما شرعت وحدها لتقوم بالغاية مع أنها لا تستغني عن أخواتها . ولا يسلم الإسلام ويحقق أغراضه إلا بفرائضه جميعاً .

جزئيات مكتملة لحقيقة كاملة ، تحمل كل منها حقيقة الكل ، وهي تطلبها ولا ترضى الحياة بدونها ، مع أن لكل منها شخصيتها الفذة ، وحياتها الهادفة وحكمتها الرشيدة .

لكنها مع هذا تأتي الحياة في غيبة أخواتها ، وتأتي بما فيها من سر الحياة إلا أن يتلاحق أخواتها إن هي حلت في قلب عبد تطوعت حياته بطهرها واشتغلت نفسه بحبها والنهوض بأعبائها .

وتعجب حين تتأملها فتراها في امتزاجها وتكاملها تبعث الحياة ، وتنشر الضياء وترد عن النفس غوائل الهوى ، وتحوط القلب بسياج اليقين ، فتدرك من أمرها أنها إيجابية المفعول ، فيها حياة الدوام ودوام الحياة .

وهي تعمل دائما بصورة طبيعية هادئة لا يعتري أثرها فناء أو ذبول فإن تعرض الجسد للفناء انبعثت بأثرها مع الروح فمدت على الصراط نورا .
وهي كما قلنا : هادفة .

هدفها أولا الإنسان ، تمده بتربيتها وطهرها ورعايتها تقوية لعزمته وتربية لإرادته وطهرا لفؤاده ، ونقاء لسيرته ، وتهديا لسلوكه .
تعطيه لتأخذ منه وفاء لربه وبراً بخلقه ، وما تأخذه منه عائد إليه في رضا الخالق وحب المخلوق .

والنتيجة لما أعطت وأخذت وردت « سعادة الإنسان » بوصله بمصدر الخيز وإعداده ليكون خليفة بر ورحمة عن سيده الرحمن الرحيم ، وليتنتفي من سلوكه ظلام السعي وظلم الفطرة ، لأن سيده حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّما : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٣] .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن هذه الفرائض معاونة من الله لنا على النهوض بأعباء الرسالة ، رسالة الاستخلاف في الأرض .

وهي تتخلل زماننا ، وتزكي مالنا ، وتوحد جمعنا ، تشيع الطهر في النفس وتفرض النظافة في الظاهر والباطن .

هذه الفرائض تعيننا على الظفر في الامتحان ، وتعودنا للإجابة الصحيحة عن كل مادة ترد ، أو ابتلاء يعرض .

فتحفظ النفس ظافرة بمعانيها ، فلا تحطمها الحوادث ولا تهدمها الشهوات ،

وذلك بما تقيم في نفوسنا من حصانة ترد السهام العارضة التي جاءت لترديها ، فحولت بفعالها إلى معان تصونها وتحميها .

الفرائض العملية تعيننا على إبراز خصائصنا الإنسانية من إرادة صادقة وعزيمة بارة راشدة ، تحول البلاء إلى مناعة الصبر ، وتخضع النعماء لمنطق الشكر .

تعيننا على التعاون والإيثار والحب ، كما تعودنا الإخلاص والوفاء والصبر ، وتفرس في نفوسنا روح الوفاء للحق والمحافظة على العهد ، والعدل في الرضا ، والغضب .

تعيننا على النظافة والنظام والطهر، تعيننا على التضحية والبذل ، تعيننا على أن نكون جنود رسالة وغاية لا عبيد هوى وشهوة ، تعيننا على الحياء والعفة ، كما تطبعنا على الشهامة والنجدة .

وهي بعد مفروضة علينا ، ليعلم مدى حرص الإسلام على إشاعة الخير فينا وبذله من أنفسنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

[سورة العنكبوت : ٤٥] .

(٢) الصلاة

منهج يومي

انظر كيف يبدأ المؤمن يومه ؟ بل كيف يودع أمسه ويستقبل غده ؟

فريضة الصلاة : تتمسك بزمام اليوم في أوله وآخره ، وهي التي تودع الأمس وتستقبل الغد . وهي مقيدة الزمان ، فسيحة المكان « فأبما رجل أدركته الصلاة فليصل » . « وجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا » .

وحكمة قيد الزمن : أي توقيته فيما نحن بصدده هي حكمة تقييد الإنسان بالفضائل والأخلاق في سعيه وعمله .

والزمان أمر قائم معه أينما حل ، والمكان يبرحه ويتركه إذا حل أو ارتحل فلا ترتبط العبادة بالمكان ذاته وإن ارتبطت بطهره .

وتلك خصيصة الإسلام في عبادته ، وهذا عطاء الله الخاص لمحمد نبيه .

الدنيا تنتظر الشمس لتنعم بضوئها وإشراقها ، وتنتظر المؤمن وهو يخرج من محراب ربه مشرقاً بفضائله وأخلاقه .

ذاك الكوكب تنجذب الدنيا إليه ، وهذا كوكب تحيا به وتتوقف طمأنيتها عليه .

ففي هدأة السحر وما زال بساط الليل ممتدًا وثوبه مسدولًا - لم يرفع ولم يقض - يظهر نجم متألق ، طليعة جيش من الشعاع زاحف ، ودلالة فيض من النور ممتد يُؤذِنُ بساط الليل بانطواء . يُؤذِنُ معه الفجر فيسعد الكون بالصبح والضياء ، فيلتقي صدق النداء بصدق الضياء .

أولهما : يسبح الله بصوت مسموع . والآخر : صامت وفي صمته آية وعبادة وخشوع .

في هذه اللحظة العجيبة الفريدة يتيقظ المؤمن ، فيشهد الفجر وهو يطوي ظلام الليل ، ويسمع الصوت وهو يفضح ظلمة الشرك وظلام الإفك بكلمات صادقة تعطر القلب وتأسر العقل .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير من النوم ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

يرتد هذا الصوت الذي يبدد ظلام النفس مع طلوع الفجر التي تبدد ظلام الحس فيلتقي النوران : نور الفجر ونور الوحي .

ذاك ترى انعكاسه على الرنى والصخور ، وهذا يمضي ساريًا نقيًا فيفيض على القلوب نورًا .

الزمان هنا خاشع حفي ، والمكان ببسمة الضياء وروعة النداء عطر ندي .

خمس صلوات تتخلل يوم الإنسان .

الأولى : توقظه

والآخرة : تقدمه للنوم وتحفظه .

وفرة بين اليقظة والنوم تأتي فرائض ثلاث ، تطهر وتذكر ، تملأ النفس بالعزم والثقة وتحوطها بشرف القصد وبر اليقين .

وهي تقدم الجسد للطهر ، وتغمر القلب بطمأنينة الذكر .

وفرة ما بين النوم واليقظة : الجسد نائم والقلب يقظان يترقب ساعة السحر فتتشط له الأعضاء وقد التقى بجند السماء ، وتلك أولى الفرائض بداية المنهج اليومي للمؤمن تأتيه الملائكة وفودا ، لتشهد قرآن الفجر : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [سورة الإسراء : ٧٨] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويتجمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » ^(١) .

الفجر كلمة حلوة ، ونغمة فريدة .

نور هادئ ، وخشوع أخاذ .

خشوع كون مطرق يحمي بإطراقه موكب الإيمان اليقظ ، على جبينه شارة الخشوع ، وفي إطراقه آية اليقين ورمز الخشوع .

ترى فيه حنو الأم وهي تستقبل وليدها الحبيب تشم منه رائحة العطر المسكوب على الموكب المتوضئ ذي الثوب الطهور .

إيه يا جند السحر ! يا من جمعكم تكبير الله ووحدتكم آية القدر !

لو أدرك الناس ما أنتم فيه من لذة الحياة وما هم عليه من طمس البصر .
 لهاجت إذن عواطفهم ، وقويت أواصرهم ، ونامت نوازعهم ، وطاب الأثر ..
 يا جند السحر ، طاب سعيكم ودام شرابكم عذبًا : « فلو أدرك الناس ما في العتمة
 والفجر لأتوهما ولو حبوا » .

عجبت لمن فقد الإيمان كيف يسعد ؟ بل عجبت لمن نام عن الفجر كيف
 يرزق ؟

الفجر بداية المنهج اليومي للمؤمن الذي وضع جنبه باسم ربه ، فتذكر بذلك
 الموت ودعاه فيما دعا : « أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت
 ظهري إليك إن أمسكت نفسي إليك فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به
 عبادك الصالحين .

ورفع جنبه باسم ربه ، فتذكر حين ذاك النشور ، الحمد لله الذي أحيانا بعد
 ما أماتنا وإليه النشور ، أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا هو وإليه
 النشور » .

إن الجريمة المبيتة في نفس صاحبها لا يمكن ضبطها أو معرفتها إلا بعد وقوعها
 وهذا لا يمنع الجريمة ولا يخفف منها بل يزيد من شأنها مهما كانت صرامة القانون
 ويقظة القائمين عليه ، إذ التخفي أمر ممكن دائمًا .

وإذا كان أمر الجريمة في نفس الفرد مرتبطًا بمدى يقظة رجل الأمن أو غفلته
 فأبشر بانتشارها وكثرة وقوعها .

لكن هذا الضابط « ضابط يقظة الضمير » . الملازم لصاحبه الذي يوقظه
 لنداء السحر .

ييطش بالجريمة المبيتة ويثدها قبل أن تولد أو يسمع صوتها يطرد من النفس
 دائمًا نية السوء ، ويحطم منها نوازع الهوى والشر

كيف لا وهي تؤمن أن الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، وتؤمن أن نجاتها في أن تحيا وتلقى الله بقلب سليم .

تأمل الفريضة الأولى في المنهج اليومي للمؤمن ترى أنها أيقظته ، فأيقظت فيه داعي الخير ، فاستجاب طائعا لأمر ربه ، وانصرف راضيا عن نبيه .

وأعجب ما في الفريضة الأولى أن تظل مشرقة في النفس تنام على لذة انتظارها وتسعى ناعمة بسر قيامها .

هي كنز مدخر ، يفيض على النفس غنى ويفضي إليها بسر القادر .

وماذا بعد غنى النفس من غنى ؟

وماذا بعد معرفة الله : من نعمة ترحى أو خير ينتظر ؟

الغنى غنى النفس والله يجزي من شكر .

من قام لله خاشعا وناداه في السحر ، هاتفا بفضله قائما بذكره ناعما بقربه فاهما لأمره كل شيء مستطر .

صلاة الفجر بداية المنهج اليومي للمؤمن ثم ماذا ؟

ثم يمضي في سعيه ، يمشي في الأرض يبتغي من فضل الله ، مزودا بشحنة الإضاءة التي تجعل ذكره لله لا ينقطع في أثناء سعيه وعمله ، فإن أجاد ذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأنه يحب من ابن آدم إذا عمل عملا أن يتقنه ، فهو يحسن لأن في الإحسان رضا الله ، فإن فاته أجر المخلوق لم يفته رضا الخالق .

شحنة الإضاءة التي زودته بها الفريضة الأولى تكشف له في كل ما يعرض عن الوجه الأكمل والجانب الأقوم .

فإن هو أوثمن على مال أو عرض حفظ المال وستر العرض .

وإن تاجر أو شارك في تجارة رعى الأمانة وحفظ العهد .

وإن تعرضت له مفاتن الحياة من شهوة تغريه ذكر الله ففف ، أو مال يطغيه أشرق النداء في نفسه : « الله أكبر » . فماد الهوى ولم يبق لشهوة المال في نفسه شأن يذكر . وإن تولى رعاية أمر - وكلنا راع - أحسن الرعاية ، فالله زقيب يستوى لديه ما ظهر أو استتر . يرى للناس ما يراه لنفسه ويحب لهم ما يحب ، لا يتطلع إلى ما في أيديهم من عرض زائل ، بل ينظر إلى ما هم عليه من دين يقتدى به أو خلق مدخر .

لا يعرف الظلم إلى نفسه سبيلاً ، إذ الظلم من ظلمات النفس .
والنفس وقد استجابت لنداء الله مشرقة طيبة الأثر .

وهكذا تأتى الفريضة الأولى في المنهج اليومي إلا أن تزود صاحبها بخير زاد ، وأن تحصنه من عبث الشياطين ، فلا يكون عبد هوى ولا يخضع لسفاهة الطين .

ولكن هل يكتفي بتلك الفريضة الأولى في المعركة الصاخبة والسوق المنصوبة . هل يترك للأتربة المتصاعدة تلتصق بالجسد في العمل الدائب والسعي المستمر ، فتملاً النفس كآبة ومللا ؟ ، أم هل يترك للدنيا بما احتوت من نعماء وضراء وفتنة وبلاء أن تعبت بالقلب فتنسيه ما هو مقبل عليه من يوم حساب وساعة حشر ؟ لا ، لا يكاد النهار يرتفع ، ولا تكاد المعركة الصاخبة يسمع صوتها ، ويرتفع شظاها حتى تسمع الصوت مرة أخرى ، صوت المؤذن لصلاة الظهر : الله أكبر ، الله أكبر ، فيقبل المؤمن إلى وضوئه يغسل عن جسده ما التصق به من تراب ، ويدخل إلى صلاة يطهر بها النفس بعد طهارة الحس .

وهكذا تأتى كل فريضة في المنهج اليومي للمؤمن إلا أن تجمع بين الطهارتين فلا تقبل إحداهما دون الأخرى : طهارة النفس بإقامة الصلاة ، وطهارة الحس بتناول الوضوء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

عَلَيْكُمْ مَنْ حَرَجَ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ [سورة
المائدة : ٦] تلك آية جمعت الطهارتين معاً ، الوضوء والصلاة .

والإنسان قد يفقد الطهر الحقيقي للجسد بفقدان سببه ، وهو الماء ، لكنه
لا يفقد أبداً الطهر المعنوي الذي يتم إحياء للنفس وقياماً بالنية والقصد في « التيمم » .
فيقبل المؤمن على الصلاة وقد حملت طهارة المعنى ، طهارة الحس ، في حالة
تغيب مادته أو تعسرهما .

وهكذا تسري روح التعاون في عبادة المؤمن سريان العصارة في أوراق
الشجر ، يشد بعضها بعضاً ويمسك بعضها بزمام بعض ، مهما تعددت الفروع
وتشكلت الأوراق . تنتهي إلى أصل واحد وتستقي من جذع واحد . إذ هي شجرة
واحدة ، إن جاء ربهما عن طريق الأصل مدت به الأعضاء ، وإن كان تنفسها عن
طريق الفرع والورق كان تنفساً للأصل والأجزاء .

والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾

[سورة إبراهيم : ٢٤] .

لا يكاد النهار ينتصف حتى يدعى الناس إلى الفريضة الثانية بنداء يحمل في
طياته إعلاناً عاماً عن القيم التي يقبل الشخص من أجلها ، وهذه القيم لو تأملها
الإنسان لوجد أنها ميزان نزيه لإقامة العدل ورعاية الحق ، إذ ليس بعد التجرد لله
وابتغاء مرضاته باب آخر يمكن أن يقف الناس عنده ، فيجدوا أنفسهم على طهارة
النفس ورحابة الود والحب الصادق للحق والعدل : الله أكبر ، الله أكبر .

نداء يدعى به الناس للصلاة يتكرر في اليوم الواحد مرات ومرات وهو يحمل
في طياته الدعوة إلى القيم الإنسانية حتى لا يشغل الناس عنها فلا يتجهوا في
الظلمات ، ظلمات البعد عن الغاية والقصل عن السبيل .

وكأنني بهذا النداء الدائم يبقى على الإنسان فهو يحدد غايته ويحفظ السلام
إذ يعرى إنسانية الإنسان .

وإنني أقطع موقنا أن هذا النداء المتكرر هو الوثيقة الصادقة لحقوق الإنسان وحرية الإنسان : « فيه المساواة بين العباد جميعًا بلا تفرقة ، إذ هو باسم الله خالقهم جميعًا » « الله أكبر » .

ينادى به لصلاة تتحطم فيها فوارق الجنس واللون والجاه والغنى والحسب فالصف الأول لمن سبق ، لا تفرقة فيه أو في غيره بين فقير ضعيف وعظيم ذي حسب .

والإمامة تتعد لمن يكون رمزًا لهذه المثل حافظًا لها ، مدركًا لحدودها قائمًا بها أيا كان جنسه ولونه وحسبه ونسبه .

فالنظر دائمًا للقيم في ذاتها إذ هي السبيل الوحيد لسعادة الإنسان وراحته .

الفريضة الثانية كالفريضة الأولى يدعى لها ولأخواتها ببناء موحد ، فيقبل المؤمن إلى وضوئه الذي يتناول الأعضاء العاملة في الإنسان التي يجب أن تتسم دائمًا بسمه الطهر ، وهي التي يتعهد بها الوضوء ويجعل طهرها ونظافتها باب الدخول في ضيافة الله والوقوف بين يديه .

هنا تجد الصحة العامة موفورة بلا تكاليف ، والوقاية قائمة لأن المؤمن حريص على حفظ الماء ورعايته لأنه أمين على نفسه وطهارته حفي بصلاته وعبادته .

فانظر كم قدمت العبادة الواحدة للإنسان من رعاية في جسده وصحته فضلًا على مقومات إنسانيته ورعايته حقوقه .

وأبادر فأسأل نفسي : إذا كانت الفريضة الواحدة تقدم كل ذلك فما رأيك فيمن يؤديها جميعًا وهو ليس كذلك ؟

أقول : أن التدين الكنوب لا ينتج أبدًا ما ذكرنا من فضائل وما أشرنا إليه من أخلاق ونحن حين تكلمنا عن « الإيمان بالله واليوم الآخر » لم نرد قط الإيمان الموروث الذي يحرص الإنسان معه على دوابه وأنعامه أكثر مما يحرص على إيمانه ، لم نقصد الإيمان المظلم المعتم الذي يشتري به الإنسان عرضًا زائلًا ودنيا فانية .

لم نقصد إيمان الخداع والكذب والنفاق الذي صورته إحدى سور القرآن الكريم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨ - ١٠] .

هذا إيمان دعي لا نقصده ولا نطلب له من أثر ، وإن قام صاحبه في أول صف والتقى مع أقرانه في جوف السحر !

وإنما نقصد الإيمان المستبصر المستنير الذي يحقق أول ما يحقق مراقبة الله وخشيته ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [سورة المزعات : ١٩] .

وحيث نتحدث عن الصلاة .

لا نريد صلاة البلادة والعجز .

صلاة الآلة الجسدية التي تحمكي حركات الجسم وتقلد صورة العبادة .

صلاة القلوب المريضة والنفوس العليقة .

وإنما نقصد صلاة القلوب الحية والنفوس اليقظة .

فستان ما بين صورة الشجرة المصنوعة التي لا تلبث أن تكشف الشمس عن زورها وتلقي بطلائها وتظهر الباطن على حقيقته جافا ميتا ليس بينه وبين الحياة سبب .

وبين الشجرة ذات الأصل الثابت والفروع الممتدة النامية التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

فستان بين تكلف الصنعة وعمل الفطرة ، وإن تشابه الشكل وتشاكل اللون فما بينهما من فرق كما بين الحياة والموت !

إن الخضرة الزائفة قد يخدعك مظهرها ثم يفجؤك مخبزها فتدرك أنها « ثوب رياء ليس وراءها ثمر يرجى أو خير ينتظر » .

فرق ما بين شجر وشجر ، وشتان ما بين صلاة وصلاة .

وقبل أن تسأل عن الصلاة . سل عن مقدار الثقة في الله ، لتعرف مدى اتصالها بأسباب الحياة فهي إن لم تنبع عن معرفة لله صادقة فلن تفيد في سلوك أو تنفع إذا وقعت الواقعة .

وهنا أستطيع أن أقطع بأمر أساء إلى الإسلام وآخر مده : هو كثرة الأذعياء الذين تعلقوا به ، وعاشوا على حسابه ، كما تعيش الطفيليات الخبيثة على الأجسام الحية .

أو قل ورثوه فتساوى لديهم وما يرثون من عرض الحياة ، لا والله بل كانوا أحرص على عرض الحياة منه حين فشئت فيهم الصفات التي تخالفه وتناقضه ! وهذه الحقيقة حولت أنظار بعض العالم عنه إذ تأملوا أمر المتعلقين به ورأوا ما هم عليه من صفات لا تؤهل أصحابها لرسالة عالمية أو سلوك إنساني .

فانصرفوا عنها وهم في أشد الحاجة إليها .

وهذا ظلم مزدوج للإسلام العظيم .

ظلم بين أهله إذ لم يحملوه بل حُملوا عليه .

وظلم له بين العالمين إذ ظنوه في خلق الأذعياء الذين انتسبوا إليه ولم يتعرفوا عليه من حيث حقيقته وأصالة منهجه وطهر معدنه .

وهذه حقيقة نقررها لننصف الإسلام أولاً وآخراً .

لأنه ليس ملكاً لأمة دون أمة أو شعب دون شعب .

ليس ضيعة تشتري أو دولة تغتصب .

إنه هدية الخالق للمخلوق ، وصلة السماء بالأرض ، ومنهج السلوك الإنساني النزيه ، إنه الحقيقة الكونية التي تضم ماضي الإنسانية إلى حاضرها ، وتربط حاضرها بمستقبلها ، فتمضي الأجيال على بصيرة من أمرها ، وأمامها عبرة الماضي وسنة الكون محفوظة في كتاب خالد مجيد : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ

مَنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ [سورة فصلت : ٤٢] .

وهذا ما يجعلنا نقرر مطمئنين : أن هذا الدين دين إنساني خالد ، إذ هو يحمل الخصائص الباقية التي لم تشوه بأيدي البشر ، ولم تتبدل بأهواء الناس وأنا حين نتحدث عن هذه الخصائص نعني بنتائجها كل من تيسر له أن يجرب ذلك عن الإسلام ، وأن يأخذ نفسه به ليقطع معنا أنه دين إنساني عام .

ليس مقصوراً على أمة أو فرد .

وليس ديناً لطبقة دون طبقة ، أو شعب دون شعب .

وأن الحرية المكفولة في تعاليمه تجعل المساواة بين الناس أمراً طبيعياً ، والإخاء بينهم أمراً حتمياً .

فإن لم تسعهم أخوة الإيمان وهي أرحب من الكون وسعتهم أخوة الإنسانية إن هم نزعوا إلى الأصل والدم .

والإسلام يقرن الأخوة الإنسانية بأخوة الإيمان في آيات متتابعة في سورة واحدة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] بعد قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٠] .

لا مكان للتعصب هنا ، ولا مجال للتفرقة ، كل ما يريده الإسلام أن يتيح الفرصة لكل فرد أن يرد الماء حين يرد ، فلا يجد من يصدده عن الري أو يصرفه عن المورد ، ومن هنا كانت فريضة « الجهاد » في الإسلام فريضة دفاع مشروع عن فرص الحياة التي يجب أن تتاح للجميع .

ولذا كانت الأوامر التي تصدر للقواد في ظل الإسلام :

لا تقتلوا طفلاً ، لا تقتلوا امرأة ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، لا تعرضوا لمتعبد في

صومعته لا تقطعوا شجراً : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّا لِلَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

لأنها فريضة إصلاح وتهذيب لا فريضة بطش وغلبة : ﴿ وَإِنْ جَئْتُمْ لِلسَّلَامِ فَاْجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٦١] .

وهذا النداء الإنساني للصلاة أكبر دليل على صدق ما نقول إذ لم ندع فيه باسم شخص أو زمان أو مكان ، وإنما باسم الله خالقنا جميعاً .

كما أننا لم ندع إلى بيت منسوب إلى الأرض التي أنشئ فيها ، بل هو منسوب إلى الله الذي أذن في بيوت أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، كما أن البيت الذي ندعي إليه لا تقرر فيه مصلحة خاصة لفرد أو أفراد ، بل تتردد فيه المبادئ الإنسانية العامة التي تكفل حق جميع الأفراد وهو بيت مفتوح لا يصدك عنه صاد أو يمنعك دونه مانع .

تدخله إن شئت فلا يقال لك من أنت ؟ ومن أين ؟ وماذا تريد ؟

لأن ما يقال فيه إنساني الفطرة لا تغلق دونه الأبواب ولا تخفيه الحجب ولم يتوجس المسلمون قط من أي فرد دخل إلى المسجد ، ووقف في الصف لأنهم في اجتماعهم للصلاة وترديدهم لآيات الله يحبون أن تقف الإنسانية جميعها معهم ، وهم يشغلون بها ويعيشون لراحتها ويعبدون الله خالقها .

لذلك حين نقرر أن هذه الفريضة تنتج كذا وكذا وإنما نقصد أن نقدم هذا لكل فرد سواء أتيح له أن يجرب فيؤمن بصدق ذلك أو لم يتح له وغاية الأمر أن يجرب ذلك بنفسه ، وألا يتخذ عمل إنسان ما حجة على الإسلام . اللهم إلا عمل رسوله الكريم ، وهذا ما أردت أن أشير إليه وأن أتحدث عنه لكي تستقيم لنا حرية الحكم النزيه الناشئ عن التجربة الشخصية لا المأخوذ من عمل الغير الذي أساء أو كذب في الانتساب .

كثيراً ما تقدم إلى المريض دواء تأمره أن يستعمله بصورة معينة ، وأن يمتنع معه عن تناول كذا وكذا ، فيأبى المريض إلا أن يخالف الأمر ويتناول بمزاجه الخاص ما قد نهته عنه ، فتضاعف العلة ويزداد المرض ويشرف المريض على الهلاك .

الذنب ليس عليك أنت وقد أخلصت في النصيحة وأصبت بما قدمت ، لكن الذنب ذنب من أساء الاستعمال ، وخضع لهواه على غير معرفة أو دراية .

ما ذنب الإسلام إذا أساء الناس استعماله ، ولم يتقبلوا بإخلاص وصدق ما فيه من نصيحة ورشد .

لابد من التجربة الصادقة ، بل لابد من المعرفة الراشدة .

وأنا من الموقنين أن الناس لو تقبلوا الإسلام كما يتقبلون النظريات العلمية التي يدرسونها ثم يحكمون في حرية ونزاهة بقبولها أو رفضها أو قل : إن الإنسانية لو تجردت من هواها ولم يقف في سبيلها تجار الأديان عبدة الهوى والمال - لابد أن تصل قطعاً إلى فطرتها ، كما لابد أن تدرك أن الإسلام هو دينها الوحيد ورسالتها الخالدة .

ويومئذ سيكون حسابها مع من صدّها أو أقامها على التعصب الأعمى حساباً عسيراً .

وسنجد في مجال التطبيق العملي للإسلام ما يجعلنا نوقن أنه خرج فعلا خير أمة أخرجت للناس ، وأن هذه الأمة من الممكن أن توجد دائماً في أي مكان أو زمان ، وأن الذين انصرفوا عنه مع انتسابهم إليه لم ولن يكونوا أبداً حجة عليه .

وإذا تقرر هذا ، وجب أن نمضي فيما نحن بصدده من فريضة الصلاة ، المنهج اليومي للمؤمن .

انتصف النهار أو كاد وآن لسوق الحياة أن ينفذ لحظة لمضي الإنسان إلى ساحة الرحمن يُفضي بما لديه ثم يتزود .

يلقي بهوموه ويقدم كشف حسابه ، إن كان في السوق قد ربح قدم الشكر ليأتيه المزيد ، وإن كان قد اهتم أو خسر ألقى بهمه فأقبل الرضا القانع يحفظ النفس ويجدد الأمل وخرج من ساحة الولاء ببسمة الأمل وطمأنينة القلب وطهارة الذكر

انفض السوق لحظة ليتجدد ، وارتفع ليرتفع اللهو وينحسر الطمع ، فترة

صمت لا يسمع فيها ضجيج ولا صخب .

لأن التكبير (تكبير الآذان) يقضي على الضجيج ويرفع الصخب

هذا في يده مال فتن به وهو كبير فلج واختصم .

جاءه الصوت « الله أكبر » فصغر المال وسعى في ركاب الحق ، إذ الحق باق

والمال فان وإن طال الزمن .

هذا قلبه مفعم بالألم لأن فلانا طغى عليه وفجر ، جاءه الصوت « الله أكبر »

فأبقى عليه نفسه ، وأزال همه ، وطمأن قلبه ، وأخذه راضيا إلى ساحة القادر الحكم .

هذا أوجعته المصائب وكسرت نفسه جاءه الصوت « الله أكبر » فاعتدلت

النفس وقوى الفؤاد ، وأقبل إلى ساحة الرحمن ، فطاب بالقضاء وما أنكر القدر ،

وهكذا تنفض السوق لحظة إلى ساحة الولاء ، ليعود - وقد اتصل بالله - إلى حسن

التعامل ورقة الإيثار ونعمة الأمل

أرأيت لم طلب الإنسان من زحمة السعي ؟

أرأيت لم فرضت الصلاة في وسط النهار ؟

إن المسجد قائم في الأرض ليصحح أمرها ويمنعها زادها .

ويأى الله إلا أن يفتح لعباده في أرضه دار ضيافة يطلب إليهم أن يزوروه فيها

ليعطهم أعز عطاء ، ويجزيهم بقصدهم وإقبالهم أكرم جزاء .

إن بيوت الله في أرضه المساجد ، يدخل الداخل إليها ، فلا يرد ولا يحجب

إلا إن حجب نفسه بقلبه ، وانصرف عن رب البيت بقصده .

أما وقد طلب الإنسان من سعيه في منتصف النهار ليغتسل ثم يعود

وقد ألقى هموم نفسه بعد أن التقى الطهر بقلبه وحسه

فليجدد لسعي شيطانا ، وقد اتسع الرحاء وطاب الأمل

يسعى على نية العود ، العود مرة أخرى إلى ضيافة الله .
 فيعزم على ألا يلم بمعصيته لأنه يخشى أن يطلع الله منه على سوء قصد
 أو يلقاه في ضيافته ولم يحسن السعي .
 بل يعمل جادًا على أن يلقاه ما بين فترة وأخرى بوجه نضر وقلب خاشع
 حذر .

فانظر كيف يتم ضبط الوقت بزمام الفضائل ؟
 وكيف تمضي الساعات ما بين سعي مخوف بالذكر وما بين ذكر يطيب معه
 السعي ؟

ثم انظر كيف تمتد الحياة في نفس المؤمن وتتسع ؟
 تمتد وقد اتسع رجاؤه وطاب سعيه ، وتتسع وقد امتدت الحياة إذ هي ليست
 دنيا فحسب ، بل في الحق دنيا محدودة لأخرى غير محدودة .
 يرى هذا بصدق وهو في ساحة الرحمن يشهد وثبات الروح وهي تطوف في
 عالمها الخالد في لمحّة الفكر وعمل القلب .
 وكأني بالجسد في رحلة الروح ، كأني به محمولًا في كنفها يدين لها ويخضع
 لسلطانها ولا يقوى على مخالفتها .

وهي تحمله ما بين فترة وأخرى سبّاقة طوافة تخترق الحدود ولا تعرف السدود ،
 وهذا الإعجاز في عمل الروح يعود بالتهذيب على مطالب الجسد ويؤمن الحياة بقيادة
 الروح .

والروح إن حكمت بفضائلها أعطت الجسد حقه في اعتدال يحفظه وحالت
 بينه وبين مهلكاته من طواعية الهوى وسفاهة الشهوة ومطالب اللذة ، حالت بينه
 وبين ما يهدمه كبنيان ، وحفظت كيانه المادي والأدبي كإنسان ، وهذا الاعتدال
 النزيه لا يمكن أبدًا أن يتم إلا إذا تولت الروح بفضائلها قيادة الإنسان ، وصرّفت
 بوحي ربها أمره .

على أن الصلاة في صورتها الكاملة مثل رائع لما يقع من اعتدال بين أمر الروح والجسد ، فهي مع كونها نجوى قلب وتسبيح فكر وترديد ذكر ، طهارة وضوء ورياضة جسد .

على أن السعي أيضاً لمطالب الحياة المادية مع حسن القصد إحياء للجانب المادي والمعنوي في الإنسان ، إذ الجسد بنيان للروح تظهر بأثرها فيه ، والروح كيان للجسد لا يكون إلا وهي قائمة به مسيطرة عليه .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن السعي دين والصلاة دين .

كلاهما عبادة يستقيم بهما ، ويتحقق معهما الكيان الحقيقي الكامل للإنسان ، وتلك تشهد لفطرية الإسلام وهو يقيم العدل أولاً في ذات الإنسان قبل أن يطلب منه رعاية العدل مع غيره .

هو مع الجسد إن مال إليه عبد غريزة وشهوة .

ومع الروح إن غلا وأسرف يهدم بنيانها الذي خلقت معه ليخلد بها وتنعم بسعيه .

وأود هنا أن أقرر حقيقة لا بد منها ، إذ لا تستقيم الحياة إلا بها :

وهي أن الدين حياة متكاملة لا يمكن أن تأخذ منه الصلاة وتقول : هذا دين ، أو السعي وتقول : ذاك دين ، أو أي جزء منفصل ثم تزعم معه أنك أخذت نفسك بالدين .

هب أن جزءاً من الإنسان فصل فهل يغني هذا الجزء المنفصل من الأمر شيئاً ، أو أن الحياة التي كانت قائمة في هذا الجزء المنفصل تعدم وهو إذ غاب عن أصله وبعد عن مصدر الحياة يتحلل في التراب ؟

الجزء المنفصل لا بد أن يصاب بالشلل والتلف والتعفن ولا تغنيه نسبتته إلى أصله أو تعريفه به

وحياة الدين هكذا . أو هكذا دين الحياة ؟

لا يمكنك أن تفصل أي جزء من هذه الحياة المتكاملة ثم تزعم أنك على صلة به أو أنك وفي له !

قلت : إن الصلاة دين ، والسعي دين ، وكذا التعاون والجهاد ، والعدل والصدق والأمانة والعفة والشجاعة والبذل والتضحية والحب والإيثار والعلم والتواضع والزكاة والصوم والحج والمحافظة على النفس ورعاية المال وتربية الأولاد وتهذيب الأسرة وتحقيق المجتمع الصالح ، كل ذلك بعد الإيمان بالله وما يترتب عليه دين .

ولا يمكن أبداً أن تزعم أن الدين واحدة منها وإن سميت به ، كما لا يمكن أن تفصل العبادات عن السعي والعمل أو تفرد بالسعي والعمل دون العبادات ، فذاك هو الشلل الذي يصيب أي جزء ينفرد ، وتلك سنة الحياة المتكاملة لا بد أن ينسجم الجزء مع أصله وأن يتعاون ويتحد .

والجسم الحي لا بد فيه من استعمال الجوارح كلها وقيام الأجهزة بعملها لكي يستقيم الكيان الإنساني ويسلم من أسباب العجز والشلل .

ولهذا لا أستطيع أن أقول : إن الصلاة تنتج كذا إلا إذا اختبرت بسعي ولم تفصل عن أخواتها ، ولم تكن وليدة عجز أو قعود .

فكثيراً ما نرى الصلاة في عصرنا المادي من نصيب هؤلاء الذين انفصلوا عن سعي الحياة ، فانفصلوا بالصلاة ، فكانت في نظر الناس عجزاً مع العجز وشللاً مع الشلل .

وتأملنا الحياة وقد انفصلت عن الصلاة فوجدناها عذاباً وجحيماً ، إذ تبدلت فيها القيم وانعكست المثل .

الحياة تستقيم بالصدق ، غابت الصلاة فأقبل الكذب .

الحياة تسلم بالحق والعدل ، غابت الصلاة فما قام الحق ولا روعيت النعم ، وهكذا ذهبت الصلاة منفصلة مع العجز فعمجت ، وهجرتها الحياة ففجرت وظلمت .

والصلاة بين تاركها ومقيمها مظلومة حيرى ، لأنها خلقت للحياة متعاونة مع الأجهزة العاملة الناهضة المتحركة فأى عرف الحياة المادية إلا أن يجعلها من نصيب من عجزوا وقعدوا .

وهي التي رأيناها تحيا مع الشباب فتثير فيهم قوة العزم وتعضم نزعة الفكر وتحفظ شعلة اليقين .

رأيناها تحيا مع الأمة الناهضة وهي تعقد اللواء فترعاها نقية في سلمها العادل وتبقى عليها وفيه في الشدة والرخاء .

رأيناها قائمة في السلم والحرب ، في الأمن والخوف ، في الصحة والمرض ، في السراء والضراء .

رأيناها وفيه لرجالها محتضنهم وقد جهدوا ، فينعمون في حجرها وما بهم من تعب أو ملال : « أرحنا بها يا بلال » .

رأيناها تنبئ عن المريض فيزار ، غاب فلان ولا بد من عذر فيقبلون وعلى وجوههم إشراقه الطهر وفي قلوبهم مع الجهد نعمة الإيثار .

تجمع الأحية لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر فيزداد الحب ويصان الجوار .

رأينا الفاروق العادل يُقتل في محرابها ، فيأى أن يضيعها أو يشغل به الناس عنها .

رأيناها لحرمتها في حومة الوغى واستقبال العدو تقام ، رأيناها وقد شمردت الحرب عن ساقها ترعى وتضان .

رأيناها في نشوة النصر لا تنسى ، وفي ألم الهزيمة تضمد الجرح وتذهب بالأسى .

هي في البيت مشعل نور وللأسرة زاد وطهور

تلك هي الصلاة مع الحياة ولا حياة بلا صلاة .

تقوم في المنهج اليومي للمؤمن مقام الأعصاب في جسم الإنسان ، شبكة متصلة تصل النهار بالليل وتوصل الليل بالنهار ، فلا الليل لاه باثم ولا الظلم قائم بالنهار .

إذا امتد بالإنسان السعي حفظته الصلاة إنسانًا لا الغنى يطغيه ولا يذله الفقر .

ففي محرابها لا يعرف للغنى جاه ولا يقام له وزن .

وما بعد غناها للنفس غنى ، ولا بعد قيامها يعرف الفقر .

وهي كغيرها فطرية في منهج اليوم ليست دخيلة فيه أو مفروضة عليه ، بل هي ممزوجة معه امتزاج فطرة - جل من فطر - سارية فيه سريان الماء في الشجر ، فلا تقل : سعي وصلاة ، بل قل دين قائم مع الحياة .

كل شيء فيها دين ما دام مرتبطًا بالإيمان واليقين .

فتمتعة الجسد - وإن كانت للتراب - تقابل في منطق الفطرة بالرضا والثواب .

أرأيت أن الإسلام دين الفطرة دين الحياة ؟

أرأيت أن الصلاة « منهج اليوم » نفحة طهر وباب نجاة ؟

ولكن لماذا يطلب من الإنسان السعي إلى الصلاة إذا كان كلاهما دينا يتقرب به إلى الله ؟

ولكي نجيب :

نود أن نسأل أيضًا :

لماذا لا نترك الإنسان دائمًا للصلاة ولا نعمل بقول الله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [سورة المائدة : ١٠] .

بديهي أن الإنسان لا يمكن أن يقيم على صلاة دائمة .

كما لا يمكن أيضاً أن تستقيم له الحياة إذا خلص للسعي ولم يقم الصلاة .
كم تستغرق الصلاة في مجموعها من زمن ؟

إذا هي استقامت واطمأنت كفأها من الساعة نصفها ، فأين باقي الزمن ؟
إن الإنسان يحتاج دائماً إلى العون والمساعدة ليستقيم أمره بعيداً عن الإفراط
والترفيط ، فلا بد إذن أن يطلب للقاء ربه وتصفية حسابه وتنقية ضميره حتى
لا يفسد أو يفسد ولا يضل أو يضل إذا انحاز إلى جسده أو استجاب لغرائزه
وشهواته واستسلم لمآربه ونزعاته .

لابد أن ينتظم مع الحياة ، فلا بد أن تفرض الصلاة .

والحياة التي نعني الانتظام معها هي الحياة بفطرتها وخضوعها لخالقها
لا الحياة العابثة الضالة المنتكسة التي تحشر الإنسان في مقبرة الهوى وتغمره بظلام
الشهوة ، فهذه وليدة انحراف الفطرة .

وهي لابد أن تصطدم مع سنن الحياة وتنتهي إلى أسوأ مصير : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا
مِنْ قَرْنٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١١] .

الحياة بفطرتها مسلمة لربها خاضعة له .

كل شيء فيها يقوم بما خُلِقَ له وما سُحِرَ من أجله .

يأتي بفائدته إذا وضع في موضعه ولم ينحرف عن قصده .

فإن أنت طلبت النار للظماً ذهب الطالب والمطلوب .

ومن رغب في الماء فظن أنه يبلغ فاه ببسط كفه عليه هلك الراغب ولم يصل
المرغوب .

هناك أمور متنافرة يقيم الانسجام بينها حسن التقدير والتدبير .

ويرفع عداها إذا التقت جريان الأمر على سنة الكون ومنطق الفطرة .

فالماء والنار عدوان إذا التقيا مباشرة أفسد أحدهما الآخر وذهب بفائدته ، وإن حيل بينهما بمحائل تعاون أحدهما مع الآخر وقدمتا منفعة مشتركة .

اعزل الماء عن النار بإناء تصلح النار ما حمل الإناء. مع حسن الرعاية ووضع الأمر في موضعه من غير إسراف أو تقتير .

وإن أنت أعملت الفكر في شرائع الدين وجدت أنها تقيم الانسجام أولاً في نفس الفرد ثم تخرج به إلى الجماعة والأمة .

ولو عاش الإنسان بلا دين لقتل نفسه بنفسه ، وحطم بعضه ببعض إذ يختلط ماؤه بناره في غير حائل يصلح فينتهي اختلاط الماء بالنار إلى الدمار والوبوار !

والإنسان مملكة قائمة بذاتها فيها من كل شيء شيء فلا بد أن تنظم بدين فطري سليم يدرك أولاً طبيعة الإنسان ، ثم يقيم الانسجام في داخل هذه الطبيعة يعدل واعتدال .

ولا يمكن أي أحد أن يقدر على ذلك إلا من خلق الإنسان وعلمه البيان . من أقام الانسجام والتعاون في هذا الكون العظيم هو الذي يقيم الانسجام في طبيعة الإنسان « وقد كان » فهذا دينه يشهد له بإتمام النعمة وكال الخلق .

وإذا تأملت آيات الله التي بدئت بقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

[سورة الرمز : ١٧ ، ١٨] .

ترى أن آيات دالة على عظمة الكون وانسجام الخلق ، خلق الرحمن . سيقت بعد التسييح والتحميد والعبادة التي تقيم الانسجام في مملكة الإنسان وليس الدين أبداً بمعزل عن الحياة .

فأمر الشمس في ملك الرحمن كأمر الدين في مملكة الإنسان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ • وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ • يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ • وَمِنْ
آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّلْعَالَمِينَ • وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبَتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ • وَلَهُ مَنْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ • وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ
عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

• [سورة الرعد : ١٧ - ٢٧]

وفي السورة نفسها - بعد آيتين فقط :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ • مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ
بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الرعد : ٣٠ - ٣٢] •

وفيها أيضا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ
اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّعُونَ ﴾ [سورة الرعد : ٤٣] •

هذه الوثيقة الرائعة من كتاب الله تشهد بأمرين :

الأول : أن الخلق جميعه مستقيم أمره برعاية خالق حكيم .
 الآخر : أن الإنسان يستقيم سلوكه إن هو التقى بفطرة الدين .
 نعود فنقول : لابد أن يتسق الإنسان مع الكون بسلوكه ، أعني لابد أن يقوم
 الدين في النفس بعمله .

وإلا قامت الفجوة بين الإنسان وسنن الكون .
 فالسماء إن ألقت عليه حاصبا لم يكن في فعلها ظلم .
 والأرض إن مادت به لم تكن ملومة وكان على الإنسان اللوم .
 ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
 وَإِلَيْهِ تُشْجَرُونَ * أَلَمْ تَأْمِنُوا مِن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ
 أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ * وَلَقَدْ كَذَّبَ
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سورة الملك : ١٥ - ١٨] .

فإذا جاءت الصلاة بعد هذا وكانت منهجا يوميا يحرس اليقين في القلب
 ونادى المؤذن : حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على
 الفلاح ، كانت صادقة فيما دعت إليه بارة فيما أعلنت عنه وكان قيامها سببا من
 الأسباب التي توفر الانسجام والاعتدال في طبيعة الإنسان فيعدل بين روحه
 وجسده ، أي يثبت أنه إنسان لا تغلبه السفاهة فينحصر في دنيا الحيوان ولا يحيا
 مترهبا يتوهم أنه ملك وهو لا يحيا كإنسان .

في العصر وقد خفت وطأة العمل وألقت الشمس ضوءا آخر على الحياة ،
 ضوء الاصفرار المشوب بغبرة السفر الطويل ، تتدخل الصلاة تلمسح عن الجباه
 الجادة عرق الكد وتعيد نضرة الحياة ، فتأتي راحة النفس مع راحة الحس .

إذ لا يترك لنتائج الكد مهما كانت خسارة أو رحا أن تتسلط على النفس
 فتشغلها بالفرح المفرط أو بالألم الحزين ، فتفصل بين استقرار النفس وأسباب
 الحس .

الجسد مكدود بالسعي يطلب الراحة ، فمن رحمة الله أن تأتي الصلاة فتمهد لراحة الجسد بالنظافة والطهر مع راحة النفس بصلاة العصر بعد صلاة الظهر ، فلا تختلف النفس مع الحس سلبيًا وإيجابيًا ، فيضطرب الكيان الإنساني بينهما ، بل تظل النفس بفعل الصلاة والعبادة موصولة بمصدر القوة والخير ، يأوى إليها وقد أعياه الجهد وأضناه الكد فلا تزيده إعياء وقد تخلف مطلوبه أو أفلت مرغوبه ، بل تمده براحتها وقد استراحت بالصلاة وتحوطه بمعرفتها وهي تدرك أن الخير بيد الله ، وقد يكون الخير فيما تكره والشر فيما تحب : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة : ٢١٦] .

وهذا يتم الانسجام في الكيان الإنساني ويسلم الإنسان من التناقض بين مطالب جسده وراحة نفسه .

وأولى بدوام الانسجام أن تظل الصلاة مع الدوام تمد النفس براحة اليقين ، فتجعل أسباب الحس في طاعة النفس .

ويقين النفس إذا استدام يخفف على الدوام ألم الحس .

والآلام لكليهما تكشف عن حقيقة اليقين ، كما تكشف ألسنة اللهب عن حقيقة ما في المنجم من نحاس أو ذهب .

فالصلاة على هذا تتناول جانبي الإنسان بالراحة وتجعل السلطة لأولاهما بالبقاء . وتلك عدالة لكليهما يجباها الله وترضاها السماء .

فسلطة النفس معناها انتصار الخالد في الإنسان على الفاني فيه ، أي انتصار الفضائل على الرذائل ، وانتصار المثل العليا على الشهوات الرخيصة .

وفي ظل هذا الانتصار يجد الجسد حقه ويلقى صيانه وحفظه .

الصلاة تعطي الروح السلطة وهي تحوط الجسد بالنظافة في ثلاثة : « في الثوب والجسد والمكان » .

تعطي الروح السلطة في رياضة الجسد ونظافته .

وإذا قلنا سلطة الروح فإنما نعني قيام العدل والانسجام في طبيعة الإنسان وهذا لا يتم إلا إذا سيطر على الإنسان طهر الإيمان .

مضت فرائض ثلاث من منهج المؤمن : الفجر والظهر والعصر .

وها هي ذي الشمس وقد اصفر لونها ، وانحسر شعاعها ، وانكمش مداها تُؤذَنُ بالمغيب ، وتؤمر بالغروب .

وتأمل الأفق فترى سوادا خافتا يتحسس موضع الضوء الهاديء ليحل فيه كما تتحسس جيوش الباطل في خوف ووجل موضع الجيش المنتصر الظافر وقد انسحب ليعمل في موطن آخر .

ولا يستطيع هذا الظلام الخائف الوجل أن يُقَدِّمَ إلا إذا أمن سهام الفارس المنتصر ، وقبل أن يمتليء به الأفق أو يغيب ما تركت الشمس وراءها من شفق يسمع صوت المؤذن إذ المغرب قد وجب .

وكأني بصوت المؤذن حينئذ وهو يكبر الله يسترعي نظر الناس في آيات الكبير في الكون وهو : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [سورة الحديد : ٦] .

وإذا كان الله قد أفاض الضوء نهاراً لينعم الناس بالسعي والعمل فها هو ذا ييسر رداء الليل لينعم الناس بالراحة واللباس والسكن .

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٧٣] .

هذا الدين يقينا ليس غريباً على فطرة الإنسان وهو يربط منهج المؤمن بآيات الكون ، والليل يخلف النهار والنور يبدد الظلام ، وليس دخيلاً على الكون وهو يصوغ أمره في آيات : القريب فيها أنها تتلى ، والبعيد في أمرها أنها أثير فعال يربط الإنسان بالملأ الأعلى .

وقربها بعيد في تربية النفس وعصمة الفكر وسلامة القلب .

وبعيدها قريب في الإحساس بالكون وسريان الفكر فيه وخشوع القلب لدلالته .

فإذا قلت : أنا مرتبط بالملإ الأعلى لا يحتاج الأمر إلى صاروخ يحملك ، فيعود بك أو لا يعود لترى من بالملإ الأعلى ثم تستيقن .

لا ، بل يكفي أن تتلى آية من كتاب الله الخالد ، يحسن القلب استقبالها ، فترى العين وقد فاضت بالدمع ، وترى الدمع الساخن يعبر في صدق عن إنسانه الغريب الذي ذكرته الآية بوطنه ، فهيجت الذكرى أشجانه وأيقظت الآية جهاز الاستقبال في نفسه .

فسمع الصوت البعيد القريب وبكى إن نسي أو أنسته الغفلة وطنه الحبيب .
إن موجات القرآن الأثرية تعمل عملها في الكون فلا توقفها العواصف ولا تمنعها السحب ، قد تفسد فقط محطة الاستقبال في الإنسان ، لكن الإشارات والموجات لا تنقطع أبداً ما دام الكون قائماً وما دام ملك الله باقياً .

إن آية من كتاب الله يحسن القلب استقبالها تربط الإنسان بالملإ الأعلى ، وتصله بالصفاء المؤنس ، وتصرفه عن وحشة الإثم وظلام المعصية وإذا كان المنهج اليومي للمؤمن يوقفه فرضاً في محراب الصلاة خمس مرات يكبر ويسبح ويقرأ ، ويسمع ما يتردد من آيات فلنسمع في ضوئه قول رسول الله ﷺ في الصلوات الخمس هذه ، وهي المنهج اليومي للمؤمن :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « رأيت لو أن نهرا يباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » (١) .
إلا أن صلاة العشاء هي خاتمة الطهر ، يتطهر الإنسان بها ، ثم ينام مسلماً وجهه لله مفوضاً الأمر إليه .

فإن قبضه كان على نية الخير ، وإن أطلقه استجاب طائماً لأذان الفجر .

(١) متفق عليه .

منهج المؤمن إذن - في صلواته الخمس - بحر طهور ، يملأ الحياة بالثناء والرخاء .

لكن النهر لا ينصرف الناس عنه لأن الحياة لا تتم إلا به .

وهم ينصرفون عن الصلاة ويرون حياتهم قائمة بدونها .

فهل النهر المعنوي في نظرهم أقل نفعاً من النهر المادي ؟

وهل النهر المادي أمدهم بشيء مغن في قضية الأمن والسلام ، وقد انصرفوا عن النهر المعنوي ؟

قد ينساب النهر المادي على الأرض فتنبت وتخصب ، ويجني الناس نتاج الزرع والثمر . وتنظر إلى حال الناس وقد حجزوا عن أنفسهم النهر المعنوي ، فلا يغنيهم في أمنهم وسلامهم وطمانينتهم وبرهم ووفائهم ، زرع ولا ثمر .

بل قد يؤدي حجز النهر المعنوي عن نفوسهم إلى ضياع الثمر الذي تحتكره نفوس جشعة ، أو تغالي في ثمنه قلوب خرية ، أو تجمعته وتستولي عليه أيد ظالمة تأسر به النفوس وتذل من أجله الشعوب .

ولكن النهر المعنوي إذا انساب وظفرت النفوس به . نعم الناس بالأمن مع الرخاء ، وبالسلم مع الثناء ، وبالْحُبِّ مع الْحَبِّ ، وبالإيثار إذا نضب معين النهر المادي أو احتجب .

فإذا شبه الرسول ﷺ النهر المادي بالنهر المعنوي ، فلأن المشبه به أصل في امتداده وبقائه جمع بينهما الطهر ، طهر الأجسام وطهر القلوب والأرواح ، والصلاة البارة تجمع بين الطهرين معاً .

والإنسان ذو جانبيين : جانب الروح ، وجانب الجسد .

جانب خلق للبقاء ، وجانب يعتره الفناء .

وما مد الباقي فهو بأثره ممتد ، وما أعطى الجسد منقطع إذا الأصل فسد .

فأي النهرين أحق بالحرص عليه ؟

نهر يبقى بأثره مع الروح ويمتد ، أم نهر ترى أثره في جسد ؟
وهل يغني آخرهما عن أولهما ؟

إن صح أن يحيا إنسان بلا روح جاز أن يحيا بلا صلاة . أي بلا نهر معنوي يظهر قلبه ويهذب نفسه ويضبط سلوكه ويحبي ضميره .

قد يعظم الأثر للنهر المادي فيما تنبتة الأرض من نعم وما تقدمه المادة بعمل الفكر من إنتاج .

ولكن نفوسا خربة لا تحيا بقلب ولا تسعى بضمير .

تفتك به وتحوله من نعم إلى نقم ، ومن راحة إلى شقاء .

ونحن نرى مصداق ذلك في عصرنا هذا إذ انفصلت النفس عن فضائلها فاشتكت الجوع والمسغبة .

أتحمت نفوس وجاعت ألوف ، نعمت بلاد واحترقت أكباد .

وأقلت إنتاج المادة ولم يحط بضمير .

فأوشكت الحياة أن تنتهي إلى أسوأ مصير !

ومن طبيعة النهر المعنوي أنه لا يرضى الحياة وحده بل لابد أن يستقيم عمل النهر المادي ، لأن الإنسان روح وجسد والدين الفطري من خصائصه الحق والعدل .

يقيمهما في كيان الإنسان إنصافا بين روحه وجسده ، ليكونا بالفطرة في سعيه وعمله .

وهكذا نجد العدل ينبع من الذات ولا يفرض عليها ، ونجد الحق في طبيعة النفس ليس دخيلا على فهمها وإدراكها .

ونفس تُشيدُّ على الحق والعدل حرية أن تصان بها الحقوق وأن تناط بها الواجبات ، وأن تنعم بسعيها الدنيا ، وتحتفي لمقدمها الآخرة

والمهجع اليومي بضوابطه الزمنية والنفسية ، واشتماله على الطهر مع قيامه في

جَمْعٌ وَجَمْعٌ ، حري أن يصهر النفوس في بوتقة الطهر ، طهر الظاهر والباطن ، وأن يضبط السلوك الإنساني بضابط الرقابة الدائمة ، رقابة الخشية من الله ، ومعرفته والتقرب إليه .

وهو ضابط لعدم معه فكرة السوء في الخاطر ، فيطمئن الناس بأثرها في الظاهر والباطن .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ
تُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ أَمِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[سورة الحديد : ٧]

المنهج المالي :

(٣) الزكاة

إن صح أن يقال : إن الصلاة تتناول جانب النفس فإن الزكاة تتناول جانب المال .

غير أن الأمر - وإن كان محمداً في الشكل - لا يمكن تحديده من حيث الحقيقة والموضوع ، لأن ما تصنعه الصلاة في النفس قد يمتد إلى المال ، بل لا يسخر في وجهه الصحيح وطريقه الفطري السليم إلا إذا استقام سلوك النفس بحسن القصد والسمي ، فما تفعله الصلاة في النفس يمتد الأثر إلى المال .

كما أن الزكاة - وإن اقتصت بالمال فسخرته وطهرته - قد تمتد إلى النفس بالطمأنينة والطهر والأمن والراحة ، راحة الضمير بأداء الحق .

وأمن النفس بسلامة القصد وطمأنينة القلب بذكر الله وابتغاء مرضاته ، والطهر من الشح والبخل بعد طهر المال بالزكاة والشكر .

والمنهج المالي كغيره يقوم أول ما يقوم على هذا الاعتراف :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

وإليه التَّشُّورُ ﴾ سورة ملك :

الله الخالق وهو الرازق وإليه المرجع والمصير وبنيني في النية والقصد على هذا
الأسناس ابتغاء مرضاة الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٤] .

ومن هنا نستطيع أن ندرك خصائص المنهج المالي في الإسلام .
وأنة منهج إنساني فطري ، وأن نقف على بواعثه ونتائجه وغايته .
المال كما يقولون : عصب الحياة ، وكتاب الله يقدمه في بعض الآيات على
الأولاد دلالة تعلق النفوس به وحرصها عليه .

والسنة وما أكرمها تربط مصير الإنسان وكرامته في بعض الأحيان بحماية
ماله . وتعدده شهيدا إن هو قتل في سبيل حمايته والذود عنه ، « ومن قتل دون ماله
فهو شهيد » .

وإذا كان المال بهذه المكانة وكان تعلق النفوس به إلى هذه الدرجة فقد وجب
أن يرسخ في النفس أولا ما هو أعز وأكرم وأبقى وأدوم ، وجب أن يحيا في القلب
مُصَرَّفُ المال لا المال .

وأن يقوم في النفس سلطان الإيمان ليصرف ما في اليد على حسب أمره وقانونه ،
وما أجمل دعاء المؤمنين : « اللهم اجعل المال في أيدينا ولا تجعله في قلوبنا ! » .
لا قيام للمنهج المالي في الإسلام إلا إذا سبق بالإيمان بالله ، وقام عليه ، شأنه
شأن الفرائض كلها ، إذ لا يمكن أن تتحقق الآثار التي يرجى قيامها بالإنفاق في
غيبة الإيمان الصحيح .

هذا يتاجر بماله ، سلعته البطون الجائعة والنفوس المحتاجة ، يستغل الحاجة ،
ويتنزه فرصة الجوع ليقدم الدرهم باثنين مضاعفا إلى عشر !
وهذا يقدم ماله لجاه دنيوي إن تخلف فلا إنفاق .

وثالث يقدم ماله مقرونا بالمن والأذى وابتغاء السمعة والرياء .

أعطيت ، بذلت ، أخذ مني فلان وأعطيت فلانا !

تلك نماذج من العطاء المكذوب مصدره تقديس الخلق وعبادة المخلوق ، وباعته أنانية الجشع لا وحدانية الإيمان ، ونتائجه انتصار الفاني في الإنسان على الخالد فيه ، أي انتصار الرذائل على الفضائل . وتلك فوضى البهائم ودنيا الحيوان !
وهناك أنواع من الشح وكزازة النفس الدافعة إلى تعطن المال مع استغلال الحاجة .

نماذج من هذا وذاك تظهر دائما في غيبة الإيمان وتختفي إذا النفس أيقنت بالرحمن .

المنهج المالي هنا في خدمة الإنسان بفضائله وأخلاقه وروحه وجسده لا يقسم الإنسان فيخدم جانبا منه بل يخدمه في جملة ، ويحفظه في أخلاقه وإنسانيته لا يخدمه كإنسان ويتركه كحيوان له غرائزه ومطالبه وشهوته ، بل يقوم على رعاية حقه من كل جانب مع رعاية حق الآخرين .

وإذا كان المنهج المالي يلتقي مع المنهج اليومي في الغرض والغاية فإن الإنسان وهو ملتقى المنهجين والمقصود بهما يبرهن في موقفه منهما على مدى معرفته لنفسه وثقته بربه وإيمانه بحقه مع حقوق غيره .

ويقلر الاستجابة بحكم على الإنسان .

فإذا فرقنا بين المؤمن والكافر بالصلاة ، فإننا نوقن بأن التملص من الزكاة دليل الشرك بالله !

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۚ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

[سورة نعل : ٦٠ ، ٦١] .

ما مهمة المال ؟ وما مصدره ؟

مهمة المال حدمه الإسد ليعم بخصائصه في ظل الاعتدال بين مطالب

روحه وجسده ، ولكن كان المظهر الواضح لعمل المال هو الجسد ، فإن الروح تتأثر بهذا العمل كما تتأثر الشجرة النامية بتخلف الماء أو فساد التربة والهواء .

ومن ثم لا تنتظر خيرا من شجر عرضته للذبول ، فأوقفت ثمره وأخفيت أثره ، والأمر كذلك بالنسبة للإنسان : تتأثر فضائله وأخلاقه وأفكاره وهي ثمار إنسانيته ونعيم روحه ، تتأثر بما يلحق الجسد من حرمان ومتعة وصحة ومرض ، كما يتوقف امتداد الأثر إذا انهدم البنيان وفني الجسد .

ومن هنا يظهر خطر المال وما له من أثر .

ما مصدر المال ؟ وما عمل الإنسان فيه ؟

من المسلم به أن الإنسان لم يخلق المادة وإن حورها أو حولها أو أجرى عمل الفكر فيها ، الفكر الذي لم يخلقه هو الآخر بل وهب له فهو ينميه أو يعطله .

جاء الإنسان إلى الدنيا وهي تزخر بكنوزها ومكنوناتها .

جاء مزودا بوسائل الانتفاع بها والحاجة لما فيها ، وقد وجد نفسه على أرض فسيحة متنوعة ، وفيه من غريزة التطلع والاستطلاع ما يغريه بمعرفتها والكشف عن خباياها وله من ضرورات الحاجة الملحة ما يدعوه لأن يعمل ويسعى ويختبر ويجرب .

موهبة مخلوقة تحثها الحاجة ويغريها التطلع إلى الكشف والتجربة والانتفاع .

فإذا قيل في قانون الدين : الله هو الخالق .

كان كل اكتشاف للموهبة تأييدا لقانون الدين وتشبيها في مملكة الفكر

أي وجود الإنسان .

وما ينتج عن هذا العمل إنما هو للإنسان نفعاً وإصلاحاً وهو من الله خلقاً

وتسخيراً :

١ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ

بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ

الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذَاتَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ

مَنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَفَّارٌ ﴿

[سورة إبراهيم : ٢٢ - ٢٤] .

٢ - ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿ [سورة النحل : ٨٠ ، ٨١] .

٣ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ [سورة الجاثية : ١٢ ، ١٣] .

فإذا قيل : لا بد من منهج يكون مرجعه إلى الخالق كان معناه :

أولاً : تحقيق العدل بين الخلق جميعاً ، لأن الله رب العالمين .

وثانياً : تزكية الفضائل في الإنسان بالاعتراف بالخالق الذي وهب الحياة ومنح العطاء .

وثالثاً : رعاية الإنسان وصيانة حقه وحماية ضروراته .

وكان القصد أن يسلم الإنسان من انحراف الفكر وسوء القصد وألم المسغبة بوضع أساس ثابت لسعادة الإنسان الدائمة التي تبنى أولاً على إبراز خصائصه الذاتية وفضائله النفسية وسلوكه العملي ، ولن يتم هذا وقد انحرفت الفطرة فأنكرت الخالق بالإساءة إلى المخلوق .

وما أفحشه كفرا ذلك الذي يرضن الإنسان معه بما ليس له على من هو له ،

إذ برهان الأذى مقترن به ودال عليه .

﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿

[سورة فصلت : ٦٠ ، ٧٠] .

الأرض أرض الله ، والإنسان مستخلف وهو خلق الله أيضا ، وفي منطق العباد إذا أنت سكنت دارا أو استأجرت أرضا لا بد أن تدفع أجر هذه أو تلك .
ومن حق المالك أن يخرجك منها إن أنت أسأت الاستعمال أو ماطلت في الدفع .

وأنت تحيا في أرض الله ، نعمة الحياة وهبت لك ، وأرضه بما احتوت ذللت من أجلك .

أفلا تدفع ضريبة زهيدة تقدمها لمن عجز أن يعول نفسه أو احتاج عن علة لا عن تقصير إلى ما في يد غيره ؟

وما تقدمه مردود إليك أمنا وحبا وثناء وطهرا ، فالله يأخذ منك قدرا زهيدا لأحيك ليحوطك ويفتديك ويربط بينكما برباط وثيق ، رباط التكافل والتعاطف والرحمة و« الراحمون يرحمهم الله » .

وما تقدمه أنت مستخلف عليه تصرفه بأمر مالكة « جل وعلا » .

واعجبا حين تضن فيضن عليك ! أو تبخل فينزح المال من بين يديك !
أو تسيء الظن في المزيد فتساء فيما لديك !

هذه أرض تثبت زرعها ، وتلك سماء تحتضن كواكبها ، ويد القدرة تدبر الكل وأنت تشهد .

فما رأيك يوما خرجت في قوة لتبعث الشمس من مرقدتها ، أو ترسل النور من منبعه لتبطلش بالظلام في مكمنه .

ما رأيك تفجر نهراً أو تجري شمساً وقمراً !

ما رأيك تحمي الزرع من عطب !

ولا حسيناك تستنقذ من الذباب ما سلب !

ما عهدناك ترد قضاء إذا وجب ، أو تعرف من أمر القدر ما احتجب !

بل رأيك ، منعما عليك ، والفلك دائر بك ، والشمس ساطعة عليك ،

والأرض بأمر ربها مذلة لك ، والهواء بما احتوى من دقة التنظيم يعش النبات فيحييك ، ويأخذ منه ليعطيك .

ترد ما أعطيت محولا إليه . فيعوضك بما لديه .

منفعة متبادلة في المملكتين وإلا فما قامت الحياة في الجانبين .

لو ترك تنظيم الأمر إليك ، - حاشا - لساومت فهلكت وأهلكت ، ولكن الأمر والحمد لله ليس مفوضا إليك ولا هو قائم بك أو عليك .

أنت ، من أنت ؟

سل نفسك بنفسك ما لك وما عليك :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ • أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ • ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ • نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ • عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ • وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ • أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ • ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ • لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ • إِنَّا لَمُعْرِضُونَ • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ • ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ • لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ • ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ • نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ • فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الواقعة : ٥٧ - ٧٤] .

الأرض أرض الله ليست أرضك وإلا فما بقيت بعدك وقد هلكت ، ولا احتوتك فأذابت منك خلايا العظم واللحم .

الأرض أرض الله وأنت تمر عليها ولا تقيم .

فلا تنازع مالكها فتضل عن الصراط المستقيم !

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

إن قيل : ادفع الزكاة لتحمل عليها ، فقلت : لا . حملت عليك . وإن قيل : لمن المال ؟

فقلت : لي أنا تنكرا وشحا وبخلا .

فإذا جاء القضاء عليك وعليه فأين أنت وأين المال ؟

وإن توهمت البقاء فطمعت في المال .

فقيل : أنت مقيم ؟

فقلت : نعم .

فماذا تفعل النعم إذا أنت ذهبت وذهبت النعم ؟

صدق أن خير ما قيل عنك فكرمت به : « أنك مستخلف » .

وإلا فسل الواقع يبتك عن نفسك إن أنت لم تدرك لغة التكريم وحقيقته في

الاستخلاف .

سل الواقع المر يبتك عن نفسك فيمن طوته الأرض وذهبت به السنون !

لن تجد من غير المالك تكريما ولن يكون .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ [سورة يس : ٨٢ ، ٨٣]

الإنسان مستخلف .

ذاك أصدق وصف ينطبق على الحقيقة والواقع .

ويعبر عن الصدق واليقين في أمر الإنسان .

مستخلف . حقيقة لا مرأى فيها ولا جدال .

وإذا نحن تأملنا أسلوب القرآن الكريم في طلبه للإنفاق وجدناه يقدم له بما

يشعر الإنسان بسيطرة الخالق على الكون ، فكل شيء مسبح بحمده وكل شيء

خاضع لأمره : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [سورة الحديد : ٦] ،

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة التغابن : ٤] .

يقدم كل هذا تذكيراً للإنسان ورحمة به حتى لا يجهل الحق فيفضل أو يعمى عن الواقع فيزل .

اقرأ قبل طلب الإنفاق في سورة الحديد :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَخَّ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ • لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ • يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحديد : ١ - ٦] .

يا لله !

أكل هذا يذكر قبل طلب الإنفاق ؟

وهل بعد هذا من رحمة مهداة أو إرشاد ينتظر ؟

ست آيات تقدم بهذه الصورة المشرفة القاطعة بين يدي الآية السابعة التالية :
﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧] .

لم كل هذه ؟ والإنسان في تكوينه ونموه وسيوره وعمله وحله وترحاله يرى الأثر الرائع للقدرة الغالبة والأمر المسيطر ؟
يرى ذلك في نفسه ومن حوله .

في الأجيال يتبع بعضها بعضاً : جيل يتبع جيلاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

في آيات الكون وما أعظمها في نعم الله التي لا تحصى وما أجلها !
وكل شيء يدين لله بالطاعة ويشهد له بالعظمة وينبئ في تكوينه وانسجامه
عن الحكمة البالغة والنور الباقي والنعمة الوافرة والعطاء الممتد .

ومع جميع الشواهد التي لا تحصى ولا يقع أمرها تحت حصر ترى الحق جل
وعلا رحمة بعباده يطلب منهم رعاية أنفسهم بالإنفاق ليحيوا مع غيرهم في حب
وتألف ورحمة .

فيقدم لهذا الطلب تعريفا بنفسه وذكرنا لعظمته في آياته التي تعود على
الإنسان بالنفع حرصا منه على تبصرته ورعايته أمره : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

دقق النظر فيما ذكرنا من آيات ، وعش بقلبك في هذه الحقائق الناصعة
لتعرف من استخلفك .

ولتدرك أن المنهج المالي قام على أسس ثابتة ، بل على حقيقة باقية خالدة .
وأن ما اقترن به من أخلاق وامتزج به من فضائل منشؤه الانصال بين العبد
وخالقه بالطاعة والعبادة .

بين الدنيا والآخرة بالسلوك والعمل .

وبين الإنسان وحقائق الكون بالتأمل والنظر .

وبين الحياة والموت باليقظة والاستعداد !

من هنا جاء المنهج المالي ممزوجا بالخلق والفضائل ، مشفوعا بالتضرع إلى الله
أن يتقبل .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [سورة المزمنون : ٥٩ ، ٦٠] .

وقد تعجب إذ ترى الإسلام يطلب من الإنسان الإنفاق في غير ما فرض من
زكاة إذا اقتضى الأمر ذلك .

ونحن نسمي هذا كله منهجا ماليا مع أنه - وإن كان محدود المقدار في الزكاة - غير محدود فيما دعت الضرورة إليه ، وأوجبت الحاجة فرضه .

بل حدده قضاء الضرورة والوفاء بالحاجة .

غاية المنهج المالي سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وآدابه مترتبة على غايته ، وفضائله مبنية على القصد منه .

وشرف الوسيلة من شرف الغاية ، وأدب السلوك من طهر الغرض والقصد والمنفق عليه إن كان قصدا عاما فباسم الله يتم الإنفاق ، وعلى عباده يعود النفع المشترك والفضل لله الغني الحميد .

وإن كان الإنفاق على فرد أو أفراد ممن شملتهم آية الصدقات فباسم الله يتم التصدق في غير من أو أذى والفضل لله رب العالمين .

وتوجيه المال بهذه الصورة إن هو إلا اعتراف طبيعي بمصدر المال وأنه مال الله وأن الإنسان وهو خليفة الله في الأرض مؤتمن عليه يصرفه بقانون ويمسكه بقانون . وإذا كان للإنسان المستخلف بداية ونهاية فإن للمال العارض بداية ونهاية ، وقد يشهد الإنسان بنفسه مرارا بدايته ونهايته في يده .

والحديث عن المنهج المالي يسترعي النظر إلى ما آل أمر الإنسانية إليه وقد حولت هذا المنهج عن قصده وصدفته عن غايته .

المال في منهجنا وسيلة لغاية .

لكنه عند أصحاب الحضارة المادية والفلسفة المادية غاية لا وسيلة ، لأنه الحياة عندهم والحياة مادة .

المال عندهم غاية لا بأس أن تكون وسائله الحيلة والخديعة والكذب والنفاق والغدر وتسلط القوي على الضعيف .

إنسانية الإنسان تخدم حيوانيته

نحن نفهم أن الإنسان مأمور بالسعي مدفوع إليه ومعه فضائله وأخلاقه ،

معه أمله وثقته في ربه ، فهو ممتد الأمل دائم العمل لا يوقفه الريح ، ولا يقعده الحرمان وما يحصله أو لا يحصله لا يفقده أبدا شيئا من خصائصه الذاتية أعنى مقوماته الإنسانية .

فلا الغنى يغير من صفاته ، ولا الحرمان ينقص من أخلاقه فهو الإنسان على كل حال .

الإنسان الذي يعرف معنى الصدق والوفاء والرحمة والعدل .

الإنسان الذي يسخر المال لصفاته ولا يسخر صفاته أبدا للمال .

ومعنى هذا أن يتوافر الأمن الناشئ عن النفس والطمأنينة المنبعثة من الفؤاد والسلام القائم بالحرص على الصفات ، والإنسانية الباقية بقاء الإنسان لا الممزقة بناب الشهوة المتآكلة بظفر الغريزة .

نحن نفهم في ظل المنهج المالي الذي يجعل المال وسيلة لغاية ، هي سبيل الله وابتغاء مرضاته .

نفهم معنى الأخوة والتعارف والتعاون والتراحم .

نفهم معنى الإنسانية على وجهها الصحيح .

نفهم معنى السلام والأمن ، نفهم معنى الحرية والعدل والحق .

ولكننا في ظل الفلسفة المادية لا نفهم عن الإنسان شيئا إلا أنه حيوان يطلب الغنى ، ويطلب المتعة ، وهو مسخر من أجل ذلك كله ينازع عليه ، ويقاوم من أجله !

ومن هنا أستطيع أن أقطع أن أمر الاقتصاد في فلسفة المادة منحرف يتيه في الظلام ، ويعمل في الظلمة !

منحرف من حيث كونه غاية أو وسيلة لغاية قاصرة .

منحرف من حيث ضوابطه الأخلاقية .

منحرف من حيث سبل الإنفاق وما يجب أن يتوجه إليه ، بل منحرف من

حيث الاعتراف بمصدره وإدراك حقيقته من بدايته إلى نهايته .

وسبب هذا الانحراف الانفصال الواقع بين العبد وخالقه بالمعصية وبين الدنيا والآخرة بالسلوك والعمل بعد القصد والاعتقاد ، إذ ليس في السلوك العملي ما ينبئ عن الاعتراف بالآخرة والتقدير لأمرها ، وبين الإنسان وحقائق الكون بالتأمل والعبرة .

إذ النتيجة الطبيعية للتأمل اليقظ ، الانتفاع والاعتراف بالخالق .

لكن التأمل عند الماديين يؤدي إلى نتيجة واحدة فقط هي المتعة المادية ، أما الجانب الآخر - وهو الأهم - جانب الاعتراف بالخالق الكون الذي يترتب عليه دائما استقامة القصد والعمل وسمو النفس بمعانيها فهو ما تفقده حضارة المادة أو فلسفة الماديين .

ولذا قلنا : أن هناك انفصالا بين الإنسان وحقائق الكون ، إذ لا تقدير للذة الجسم مع فساد النفس .

والانفصال أيضا بين الحياة والموت فكل شيء في سلوك الماديين ينبئ عن أنها دنيا فحسب ، فلا إعداد ولا استعداد لشيء آخر !

ومن هنا وقع التنافس المسعوز على اللذائذ والمتع .

كما أن الحياة بفعل المادة الغشوم ومنطق اللذة البليد تحولت إلى جحيم مستعر والنتيجة الحتمية وقوع الانفصال في كيان الإنسان بين مطالب الحس وطمأنينة النفس ، وإذا عدم الانسجام في الكيان الإنساني فكيف يتم في عالمه الخارجي ؟ والعالم في سلوكه صورة منعكسة لما في النفس .

فإذا فقد الأمن في مجموعة فاعلم بأن الأمن قد فقد أولا في نفوس أصحابه .

ولكن منهجا يقوم على رعاية الإنسان من كل جوانبه جدير أن يقيم الانسجام في كيان الإنسان بين روح وجسد : روح تعترف بالخالق ، وجسد يخضع لأمر الروح فيحيا في ظل عدالة السماء قويا نظيفا ينعم بمطالبه في غير إسراف يؤدي به أو تقتير يضعفه .

وتلك هي الفطرة السمحاء والسنة المطهرة .

سنة عدل بين روح وجسد ، سنة رعاية لكل جانب في الإنسان ، سنة حقوق وواجبات .

ومن هنا كان الاعتراف بالخالق في المنهج المالي محققا لقيام الانسجام في كيان الإنسان . وكان قيام الواجب المالي وتصريفه في ظل الإيمان تحقيقا للعدالة الصادقة البارة لجائبي الإنسان

وأراني أتحدث عن المال بصورة عامة مع أن الفريضة الثانية هي الزكاة فحسب ، ويقتضي الأمر أن يكون الحديث مقصورا عليها .

ولما كان الأمر لا يتعلق بالزكاة فحسب ، بل يتعلق أيضا بكل المورد وطهر الوسيلة حتى تطلب الزكاة ، فقد تحدثت أولا عن المال بصورة عامة إذ لا نضع في ميزان التقدير مرايبا وسارقا أو مختلسا ومحتالا ، لأن الفرائض العملية كلها تقوم على الأساس الثابت والأصل المستقر : الإيمان بالله القادر المقدر .

وهؤلاء وأضرابهم قد انتفى تقدير الأصل في نفوسهم فاختفى الطهر من حياتهم ، ولا يتأق الطهر لهؤلاء بالتصدق من مال السرقة والربا والاحتيال ، بل لابد أن تظهر نفوسهم أولا من لؤثة الشرك وتحيا قلوبهم بشرف القصد فيستقيم لهم ميزان التقدير . تقديرهم لأنفسهم أولا وهم يبيعونها بريق مفقود .

وتقديرهم لخالقهم وهم يسيئون الظن به ، فيتعجلون حظهم من الحياة ونصيبهم من الدنيا !

وتقديرهم لحققة ما يفتنون به وهم يتوهمون البقاء فيه أو الإبقاء عليه !

سبيل الطهر لهؤلاء : زكاة النفوس قبل زكاة المال .

ومعرفة الخالق لينتفي من أمرهم سوء الكسب وكذب التصديق على المخلوق .

إن متاهات الباطل وهي تلتوي بأصحابها وتنحدر بهم في ظلمات الهوى

لا يمكن أن تضاء بسنا البرق أو نار المستوقد .

كما لا يمكن امتداد السير على نار المستوقد أو سننا البرق .
 لا بد من تعثر الخطى مع قيام الظلمة : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
 مِنْ نُورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

والتور في الإنسان ليس مشكاة تحمل على اليد ، بل هو ضياء في السمع
 والبصر والفؤاد ، يدرك معه حقيقة الأشياء ، ويحدد به موقفه من كل ما يعرض له :
 ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
 الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
 [سورة الأنعام : ١٢٢] .

وهذا ما نطلب تحقيقه في الإنسان ولا يتم إلا بالإيمان .
 فقبل أن نطلب درهمه الأعمى أو ديناره الأصم نطلب إيمانه المستبصر المستتير
 لنرى منه النظرة البارة ، والبسمة الرقيقة المهذبة ، والكلمة الطيبة مع التصديق العف .
 وهذا ما يمكن أن تطيب به نفس المتصدق عليه وتقر به عينه إذ هو تصدق
 خلق بار كريم : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] .

وبعد فمصداقا لما ذكرت تأمل حديث رسول الله ﷺ :
 عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول
 الله : أي الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر
 وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا وقد
 كان لفلان ! » .

تأمل « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى » . نجد
 الدافع الثقة فيما في يد الله التي لو عدت ما وقع التصديق ولا قيام العطاء ولا تقبل
 العمل ، إذ لولا الثقة في الله ما قام الغنى في النفس مهما كثر المال ، ولم يظفر القلد
 بالطمأنينة مهما امتلأت اليد بالدرهم والدينار .

بالثقة يتم البذل والتصدق ويتحقق قول الله : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

كَانَ بِهِمْ تَحْصَاةٌ ﴿ [سورة المشر : ٩] .

إن النفس إذا أيقنت بالله عرفت مصدر الخير ، فأنفقت ولم تحش من ذي العرش إقلالا ، وإذا وثقت فيه واطمأنت إليه أبصرت أمرها فلم تر لنفسها فضلا فيما أحرزت أو أنفقت ، والفضل دائما لله الغني الحميد .

ولنا بعد هذا أن نتساءل :

كيف يفرض الإسلام الزكاة ويوجب التصدق ، مع أنه يدعو إلى العمل ويحث عليه ولا يرضى لأبنائه أن يقعدوا أبدا عن طلب الرزق وهذا وحده كاف للضرورة مغن عن المسألة مذهب للفاقة ؟

ولكي نجيب عن هذا نجب أن يكون معلوما أن الإسلام لا يرضى لأبنائه أن يقعدوا عن طلب الرزق وينتظروا من السماء أن تمطرهم ذهباً أو فضة .

فالجالس في المسجد في غير أوقات الصلاة يُسأل من يعولك ؟

أخي .

أخوك أعبد منك .

وفي يوم الجمعة : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

[سورة الجمعة : ١٠] .

لأن الإسلام دين يمتزج بالحياة فلا يفرق بين صلاة بارة وسعي مشكور . لا تواكل ولا كسل .

والإسلام بما افترض من زكاة وما أوجب من صدقة لم يفترض في مجتمعه أنه مجتمع « متسول » ينتظر اللقمة واللقمتين والتمر والتمرتين . بل افترض أولاً أنه مجتمع عامل جاد متكافل . والإسلام فرض الزكاة وهو يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » ، « ومن يستعف يعفه الله . ومن يستغن يغنه الله » .

والرسول ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة : « والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » .
 « ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس . » .

العفة بالعمل والتعفف مع العلة والمعجز ميزان الخلق الإسلامي في منهجه المالي : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] .

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم ، إن هذا المال نخضة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فقال حكيم : فقلت يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا .

فقال عمر : إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الشيء فيأبى أن يأخذه .

فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي .
 وفي رواية قلت : فوالله لا تكون يدي بعدك تحت يد من أيدي العرب .
 فأنت ترى من هذا مدى التنفير من أن يكون المؤمن صاحب اليد السفلى ، كما ترى غاية الحث على التعفف وأخذ الأسباب إلى الاستغناء ولو يحمل حبل على ظهره فتحنطب . « ومن أمنسى كالا من عمل يده بات مغفورا له » .

ولكن قد يقع العجز وتمنع العلة من الكسب ، قد يموت العائل وله زغب جياع .

قد تأتي عادات الأيام على ثمرة الكسب والعمل .

بل قد يمتد بك السعي إلى دار غير دارك وأرض ليس بها أهلك وصحبتك والمال قد نفذ وأنت تبغي الأوبة إلى الصحب والأهل .

قد ، وقد مما لا يحصيه العد من حوادث الزمن وعادات الأيام وصروف الدهر .

فهل يترك هؤلاء للأحداث تبطش بهم ، وللعادات تنكس رؤوسهم ، ولصروف الزمن تهدم بنيانهم وكل فرد معرض لذلك أو لا بد من التكافل بين أفراد المجتمع ، فلا بد من فرض الزكاة ووجوب التصدق !

إننا ننشئ المستشفيات ، نملأ مخازنها بالدواء ، وساحاتها بعربات الإسعاف تتأهب لكل طارئ ، فتسرع لإسعاف الجريح وإغاثة المتألم .

هذا منطق الطبيعة وداعي الضرورة .

أفلا تفرض الزكاة لتبقى الأمة ؟

أي والله لتبقى الأمة ! إذ لا بقاء لأمة لا تماسك للبناتها ولا تعاون بين أبنائها ولا تكافل أو تراحم بين أفرادها !

ونحن أمة شبه الرسول ﷺ أمرها في توادها وتعاطفها وتراحمها بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

ولم أر أعظم ولا أقوى ولا أبر وأكرم من هذا التماسك والتعاون في طبيعة الجسد الواحد فمعلوم أن الجسد إن أصيب جزء منه تألم كله .

ليس تألماً سلبياً بالدموع تذرف وبالكلمات الحزينة تنثر .

وإنما هو تألم إيجابي يظهر فيما تفعله الأعضاء من بذل ما لديها .

وما تقدمه الخلايا من إشارات وإمدادات وحراسة وترقب .

يشغل الجسد كله بالجرح المتألم ، فلا تزال الإشارات تعمل والإمدادات تتوالى والحراس يسهرون على الجرح يقدمون إليه ما يصل من عطاء مفيد حتى يندمل ويعود الجسد سليما معافى كما كان .

وهذا بالضبط حال المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم :
إن مات والد اليتيم فكلهم له أب .

وإن نزلت الفاجعة على أحدهم فإنما هي فاجعتهم جميعا .
وإن اعتدى على جزء من أجزائهم عملت الإشارات وأقبلت الإمدادات من كل مكان تحرس وتحمي وترد وتدفع حتى يظل الجسد في مجموعه معافى سليما وتبقى الأمة في مجموعها متوادة متعاطفة متعاونة متحدة متراحمة .

وتلك هي الأمة التي قال الله عنها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

[سورة آل عمران : ١١٠] .

ومن هنا ندرك لم قاتل أبو بكر مانعي الزكاة ، ساوى بينهم وبين المرتدين في حروب الردة ؟ ذلك كان حماية للأمة الإسلامية أن تنفك روابطها أو ينفرد عقدها ، وتأديبا لهؤلاء الذين غفلوا عن مصدر المال فمنعوه .

والمال كما قلنا : مال الله والعبد مستخلف فيه .

فمن منع حق الله في المال فامتنع عن الزكاة وجب أن يقاوم عليها لأنه بذلك يفتح بابا واسعا لقتل نفوس بريئة قد يكون منها طفله وهو لا يدري ، وقد يكون هو نفسه من حيث لا يحتسب إذ لا يعلم أحد ما يبيته القدر ، وكم من غني بات فقيرا ، وكم من وليد ربي يتيما :

﴿ وَيَخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِرَاعًا تَخَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٩] .

أدرك أبو بكر ما ينتهي إليه أمر الأمة إن هو ترك هؤلاء الذين يعملون على هدم الأمة وتحطيم روابطها بمنع الزكاة ادعاء بأن المال ما لهم ؛ ولما عارضه عمر وقال : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

لَوْلَا أُخْرَجْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ • وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [سورة الماعون : ١٠ ، ١١]

٧ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى • فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى • وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى • فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى • وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [سورة الليل : ٥ - ١١] .

٨ - ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١ - ٤] .

٩ - ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الرِّكَاةَ فَآخَرًا إِنَّكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة : ١١] .

١٠ - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [سورة التوبة : ١٠٣] .

١١ - ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] .

١٢ - ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَلذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

١٣ - ﴿ الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] .

تأمل أسلوب القرآن الكريم فيما عرضناه عليك وما لم نعرض مما فاض به القرآن الكريم في غير موضع تجد نفسك أمام الحقائق الآتية :

١ - أن الزكاة باب النعمة النامية والعطاء الممتد : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] .

٢ - أن زمام المال ليس بيدك وإنما هو بيد الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون .

٣ - أن الامتناع عن الإنفاق سبيل التهلكة : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٥] .

٤ - أن جنة الله لمن آمن به ووضع عطاءه حيث أحب : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [سورة التوبة : ١١١] .

٥ - أن إنفاقاً بلا إيمان لا خير فيه ، وإيماناً بلا إنفاق الشرك معه : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧] .

٦ - النهاية نتيجة حتمية والموت أمر لازم : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ١١] .

٧ - من مات لا يرجع ومن ذهب فمالاً لغيره : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [سورة الليل : ١١] .

٨ - أن سعادة الناس هنا وفلاحهم مرتبطان بالإيمان والعمل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١] .

وبعدها عُدَّ لجملة من الأعمال منها : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾

[سورة المؤمنون : ٤] .

٩ - أن أخوة المؤمنين ووحدتهم مصدرها لقاءهم على الله واعترافهم بحقه :

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة : ١١] .

١٠ - أن المتنع عن الزكاة لم يضر غير نفسه : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٥] .

١١ - أن قبض اليد عن أداء الحق دليل النفاق وعدم الثقة في الله والخروج على طاعته : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] .

تأمل بعد هذا جانباً من حديث رسول الله ﷺ مما روته الصحاح :

١ - عن أبي أيوب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : أخبرني بعمل يدخلني الجنة : قال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » .

٢ - عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « يا عبد أنفق أنفق عليك » .

وقال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغيض ما بيده وكان عرشه على الماء يخفض ويرفع » .

٥ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال

وارثه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما آخر .

٦ - عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وفي رواية : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[سورة آل عمران : ١٨٠] .

٨ - « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه عز وجل » .

٩ - عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة فقالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد . قال : فليعمل بالمعروف ، ولْيَمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » .

١٠ - « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » .

هذا قليل من كثير مما أفاضت به السنة الشريفة في الزكاة والصدقة والإنفاق . أردت بما قدمت من آيات وأحاديث أن نتأمل أسلوب القرآن الفريد والسنة المطهرة لنذكر معهما أن الخليفة الراشد « أبو بكر » الصديق رضي الله عنه حين قائل مانعي الزكاة إنما كان مدفوعا بيقين ثابت وإيمان راشد وغيرة صادقة على مقدرات الأمة وميراثها ورعاية أماناتها .

ماذا بعد أن تسمع ممن خلقتك ورزقك : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

[سورة التغابن : ١٧] .

يا لله !

ماذا يطلب العبد من بر وكرم ورحمة بعد هذا ؟

ماذا بعد أن يخاطب الله عباده بهذا الأسلوب البار الكريم ؟

والنتيجة لا تعود إليه ، أنفقوا أو لم ينفقوا ، فهو غني عن العالمين : ﴿ وَمَا

تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُنْفِسِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] .

لا شيء بعد هذا إلا أن مجرد الصديق حسامه لينصف الحقيقة الباقية ويرد

الحق إلى نصابه : « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

والحقيقة أن المال مال الله ، والعبد مستخلف فيه .

فإذا ادعى إنسان ما ليس له وجب أن يؤخذ منه ، وإن أذى قوتل عليه !

وإذا حاد الناس عن الحقيقة وجب أن يردوا إليها ، وفي هذا حياتهم ونجاتهم .

ولقد قلت : إن الإسلام قد سلك إلى هذه الحقيقة الفطرية أبر السبل

وأكرمها وهو يأخذ الزكاة من أغنياء المسلمين ليردها إلى فقرائهم ، يأخذها بلا ظلم

أو استعلاء ، فباسم الله تؤخذ ، وباسم الله تعطى .

ومع أن المال مال الله ، والعباد عباده - فهو مع ذلك - يعدهم على حسن

قيامهم عليه وتصرفهم فيه الأجر الجزيل في الآخرة ، بالإضافة إلى ما ينعمون به في

الدنيا من أمن ورخاء وطهارة وثناء .

والزكاة مع هذا لا تؤخذ عن غير مقدرة ولا يعطاها غير محتاج .

إن ميزان العدل في الأخذ والعطاء ميزة هذه الفريضة الإلهية .

قد تستأجر أرضاً من عبد فأنت تدفع له الأجرة ، فما الزرع أو هلك لكنك

هنا في الفريضة العادلة تدفع الزكاة مع الثناء .

تدفع عما أنتجت الأرض بحساب « العشر أو ربه » .

وأنت تملك مالا يدور في حاجتك لا يستقر ، ولا يمضي عليه حول ، هذا

مال الضرورة بالنسبة لك ، فلا شيء فيه إلا ما تقدمه عن طيب نفس ، لكن المال الذي يستقر معك حولا كاملا ليس هذا مال الضرورة بالنسبة لك ، وإنما هو مال زائد على حاجتك فلا بد أن تدفع عنه الزكاة ، ربع العشر ، فأنت ترى في كل صورة من صور الزكاة أن الحق والعدل هما ميزان هذه الفريضة الفطرية البارة ، لا ظلم ولا تعسف ، بل هي عدالة الله شرعها ، ورحمته أهدها : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ٧] .

يمكنك بعد هذا وبعد دراسة ما ورد عن الزكاة من تنزيل وتبيين وهي تتآخى مع الفرائض الأخرى أن تدرك أن هذا بحق من الله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ [سورة الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٣] .

وأنت ترى أن الزكاة وهي تصدر عن إيمان بالله واليوم الآخر تحفظك إذ لا تفرق بين عاجلك أو آجلك ، وتربط بينك وبين أخيك برباط الود والحب والطمأنينة والأمن .

فالزكاة لا تقوم على ذكر اليوم ونسيان الغد ، بل تأخذ من يومك زادًا لغدك ، ومن غدك تهديا وتقويما ليومك .

الدرهم في ساحة هذه الفريضة إنساني النزعة في الكسب والعطاء يمثل خلق صاحبه الذي يحمد الله ويرجو أن يتقبل .

والإنسان مع هذه الفريضة حر يجني نتيجة كسبه وعمله .

وهو يدفع قدرًا معلومًا يعلن به ولاءه لخالقه واعترافه بفضله ، وتآخيه مع الجماعة التي يلتقي معها بطبعه .

وفي ظل الحرية المكفولة حرية العمل ، الكسب لكل فرد يعظم الإنتاج .

ومع حماية الضمير اليقظ للفرد والجماعة الناشيء عن الإيمان بالله والثقة فيه والاعتراف بفضله يتحرك هذا الإنتاج بآراء الإنسان حفيا به ، وقيا ليومه وغده .

نعم يتحرك الإنتاج بلا تضخم ولا استعباد ، فيحيا معه الفرد بين حرية

الانطلاق البار والاعتدال العف ، لا يشكو نخمة المال الظالم بالكنز ، ولا مسغبة
الفقر المظلوم بالشح .

فتوجد أمة الخير ذات اللبنة القوية المستقيمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر
وتؤمن بالله .

يستجير بها المظلوم فتجيره ، ويحتمي بها الضعيف فتحفظه ، ويطلبها المحروم
فتعطيه ، ويحتكم إليها العدو فتصفه ، فتصدر في حكمها له عن شرف الغاية أي
عن مراقبة الله فإذا العدو صديق ومعه الحق ، وإذا الصديق عدو إن هو جانبه
أو حاد عنه .

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وذاك قانونها إن هي مكنت في الأرض : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ
أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

[سورة الحج : ٤١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَا كُنتُمْ تَنفُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٨٣]

(٤) الصوم

الفرد في ظل الإسلام لا يعرف معنى الفراغ المهلك .
الفراغ الذي يوقظ نوازع الهوى ويذهب بشرف الفكر .
فهو صاحب منهج مليء بالواجبات . مملوء بالحقوق والتبعات .
وقد رأيت والصلاة تشيعة إلى مرقدته وتبعته منه وتطلبه من سعيه وترده إليه ،
لا ليخرج منها إلى إثم أو فسق بل ليخرج إلى عبادة من نوع آخر .
عبادة العمل على حفظ كيان الإنسان بالسعي المشكور والعمل البار .
والإسلام العظيم يسمي عمل الإنسان كله مع حسن القصد عبادة ، وذلك
مفهوم الحصر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » مَا أُرِيدُ
مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾ [سورة الذاهبات : ٥٦ ، ٥٧] .

خلقه للعبادة ، لا لشيء آخر أي شيء .

وقد قلت : أن حسن القصد يجعل عمل الإنسان كله عبادة .

وإذا تأملت ما يلزم الإنسان لحفظ كيانه ألفت أن الواجبات المنوطة به
والتبعات اللازمة لحفظ كيانه لا تدع منه فراغاً يقتل حسه ويطفيء إشراق نفسه وينال
من طهر فكره .

وألفيت أن العمل في سبيل ذلك يأتي تباعا :

فهو إن دخل إلى المحراب متعبداً ليعطي النفس حظها من السمو والطهر
انتقل إلى ساحة العمل متعبداً ليعطي الجسد حظه من المطعم والمشرب ، ووجد نفسه
وهو يسعى ويعمل ويسمو ويتطهر أمام كون منظم يدعو إلى التأمل والفكر والنظر
والتدبر ، فوضع لنفسه منهجاً يمتد ويتسع حتى يشمل زمن الإنسان كله إن أراد
أو اقتدر .

وما يناله من معرفة إن هو ثابر وجد وانتظم قليل مهما بطال العمر أو امتد
الأجل .

فهو يحيا في كون الله الواسع العريض ، وفي كل يوم يكشف فيه عن جديد ،
بل الإنسانية في خط سيرها الطويل لا تصل في معرفتها إلا إلى قدر ضئيل من أمر
الكون المرئي والخفي .

الفكر إذن يعمل وله منهج .

والجسد يتحرك جاذاً عاملاً منطلقاً وله منهج .

والنفس بعواطفها وجنانها تتصل بمخالقها وتطوف في ميدانها غير المحدود ولها
منهج .

والفرد بكيانه كله مع أسرته له منهج .

والفرد مع الجماعة التي يحيا معها له منهج :

ومع الأمة التي تتعرض للخير والشر والنصر والهزيمة .

والأمة في مجموعها وهي تحفظ كيانه وتصون شرفها لها منهج .

وهي تعمل للحق وتضونه وتدعو إليه لها منهج .

وهي تحمي أفرادها في اليوم والغد وتقدمهم للدنيا والآخرة لها منهج .

وفي علاقاتها بمن جاورها أو حاورها أو عاهاها لها منهج .

والفرد في كل ذلك هو الذي يتحقق به المنهج كله .

فأين الفراغ إذن في حياة الأمة الإسلامية ؟

لا فراغ والإسلام قائم بالنفوس .

لا فراغ والإيمان يعمر القلوب .

لا فراغ في حياة أمة لها غاية بل في حياة فرد له عقيدة ، فإن العقيدة تملي عليه دائماً أن يتحرك في دائرتها وأن ينتظم في سلوكه مع شرائعها وواجباتها ، العقيدة التي يناديه الله بها دائماً إذا أمره بشيء ودعاه إليه أو نهاه عن شيء وصرفه عنه .

فيأتي التكليف وقد اقترن ببدء العقيدة - التي هي أصل كل خير - وفيها بالغاية ضرورياً لحفظ الكيان الإنساني .

وهذا واجب بل منهج يكلف المؤمن القيام به عن طريق هذا النداء البار الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

منهج هو للروح والجسد وللفرد والجماعة ، منهج الصوم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] .

وقد استعملت كلمة منهج في فريضة الصوم أيضاً ، لأنه محدد في الفريضة بـ « شهر رمضان » .

ومحدد في الزمن بحدود الظلمة والنور من الفجر إلى الليل .

ومن عجب أن يقترب تهيؤ الإنسان للعبادة في تلك الفريضة بظهور آية النور - الفجر الصادق . وأن يفطر حين يفطر وقد ظهرت في الكون آية أخرى هي آية الليل . وما الكون وما يدور فيه إلا تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

نعم ، استعملت كلمة منهج في فريضة الصوم ، لأنه محدد أيضاً من حيث غايته ، شأنه شأن إخوته من الفرائض الأخرى ، فغاياته رضا الله إلا أن التجرد فيه أمكن ، فكان أمره في باب الجزاء أكمل .

« الصوم لي وأنا أجزي به » .

وتأمل نموذجاً من حدود الصوم في حديث رسول الله ﷺ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام جنة ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل : إني صائم مرتين ، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها » .
« جلود » .

(أ) « لا يرفث ولا يجهل وإن قاتله أحد أو شتمه » فليتكبر تجرده لربه وتحرره من شهوات نفسه وليقل إعلانا عن هذه العزيمة الصادقة : « إني صائم » .

(ب) « يترك طعامه وشرابه وشهوته » .

(ج) « وتلك غايته من أجلي : « الصيام لي وأنا أجزى به » ..

الصوم للجسد والروح :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

« من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

حصانة لكليهما :

للجسد : بالتهذيب والإصلاح .

وللروح : بإبراز خصائصها وانتصار فضائلها .

الحياة لا بد فيها من عزيمة صادقة تصدع غوائل الهوى ، وترد هواجس الشر وتبطلش بالهوى الكذوب ، وتنطلق بالإنسان إلى الجهاد الحمر الكريم في شتى الميادين . وهذه العزيمة لا بد منها لتحمل أعباء الحياة .

والصوم وهو يمدنا بالعزيمة المتجردة والإرادة الحرة عون من الله لنا على تحمل أعباء الحياة .

وأى عزيمة أصدق بل أي نظام أدق من أن ترى المؤمن في مشارق الأرض ومغاربها يمسك عن طعامه وشرابه في لحظة محدّدة ثم يتناوله في وقت معين من الليل إلى الفجر .

ثم يمسك زمام نفسه من أن تذلل لشهوة أو تسترق لنزوة أو تنجرف في تيار الهوى الضال ، أو تنحرف عن هدي الصراط المستقيم ؟

بل أي إرادة حرة أكرم من إرادة المتجرد لربه المتجه لخالفه الممسك عن هواه تقرباً إليه ، والممتنع عن طعامه وشرابه رغبة فيه ، الحذر من مواطن السوء وسفاهة القول رهبة منه ، والمتجه بكيانه كله شوقاً إلى قربه وإيماناً بفضله ؟

والحياة أيضاً بمراحلها المختلفة وظروفها المتقلبة ومشاكلها المتعددة ، الحياة بسرائها وضرائها ورخائها ونعيمها وبلائها - تحتاج إلى صبر ، والصوم كما قال رسول الله ﷺ « نصف الصبر » والصبر نصف الإيمان .

وأي صبر أكرم من صبر يحرز طاعة أو يرد معصية يتحقق معه في الحالين رضا الله .

ذاك هو الصبر الناشئ عن الصوم الرضي الأمين .

وأود بعد هذه النظرة العامة لتلك الفريضة . أن ندرك من أمرها أنها عبادة قديمة امتدت مع الإنسانية من بدايتها ، لأن الإنسان من يوم أن كتب الله الاستخلاف في الأرض وهو بحاجة إلى إبراز الخصائص التي تؤهله وتعينه على أداء ما استخلف عليه .

والصبر الذي يحققه الصوم من أهم هذه الخصائص التي تؤهله للبقاء ، بقاءه كإنسان خلق ليسعى إلى دار السلام ، بفضائله التي يحققها بسعيه ، ويبرهن بما يحقق على أهليته للتمتع بثمار غرسه وجنة ربه .

وغرس الإنسان الخالد لا يبد فيه من انتقاء البذرة ومن تهيئة الجو والتربة ، لا يبد من الملاحظة الدقيقة والرعاية الكاملة .

ثم لا يبد بعد كل هذا من رعاية الله وحماية السماء حتى لا يتعرض الغرس لآفة قاتلة آفة الشرك الخفي والغفلة الشاردة ، أو الغرور ببداية الطلع وغماء الزرع .

والسما لا يتمسك آفاتها بإعلان العصيان عليها أو التمرد على أوامرها ولا ترسل خيراتها لمن يتنكر لها أو ينفصل بقلبه عنها . وإنما تساق بركاتها وتزخر خيراتها ، إذا

النفوس آمنت وأيقنت ، وإذا القلوب طهرت ، وإذا العزائم تجردت ، وإذا الأسباب بعد ذلك توافرت :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٦] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٥] وتلك ثمرة الغرس الطيب ، غرس الإيمان والتقوى .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن قَوْفِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [سورة المائدة : ٦٦] .

والإنسان من يوم أن وجد يغرس ليبقى .

ولا نفرق بين ما يغرس من نبات ليطعم وبين ما يغرسه من سلوك طيب ، فكلاهما في باب التدبير الصحيح القائم على النية الطيبة سبب من أسباب بقائه ، والإنسان على أهبة الانتقال في أية لحظة .

﴿ وَمَا تَذْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

[سورة لقمان : ٢٤]

وسيجني حتماً نتيجة عمله وثمار غرسه ، ولن يتخلف ثمر أو يبطيء رحيل .

ورحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول :

تشاد المغاني والقبور دوارس ولا يمنع المقدار باب وحارس
ومهما يكن فالله ليس بزائل ويجني الفتى من بعد ما هو غارس

وكأ قلت : أن الغرس ما لم تنهياً له التربة والرعاية والوقاية فلا يرجى له نماء

ولا ثمر .

وتربة الغرس النافع القلب السليم

ونماؤه الكلم الطيب والعمل الصالح ورعايته ووقايته بمراقبة الله وخشيته

والآفات لا تنشأ إلا من داخل النفس وهي أمانة بالسوء . فمن رحمة الله بها أن يعينها على إبراز خصائصها وصيانة غرسها .

فيأتي الإسلام متكاملًا لضبط النفس وحصانة القلب ورعاية السلوك . وتأتي فرائضه التي يقام عليها لتكون أسسا راسخة لبنيان متين .

ومن هذه الأسس التي بنى الإسلام عليها « الصوم » الذي فرضه الله لنا وألزمنا تأديته كما فرضه على الذين من قبلنا .

فالصوم مع كونه قرينة إلى الله فإنه يعطي النفس قناعتها ، ويعتقها من الهوى الكذوب ، ويحررها من الشهوة الآسرة .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

لا يكاد شهر رجب يقبل ومن ورائه شعبان حتى يتنسم الناس عبيق الشهر القرآني الفريد .

ولا يكاد يطلع على الناس هلاله حتى يغمر الدنيا ضوء من الخشية الهادئة والذكر الرفيع .

الله أكبر ، أذن الفجر في أول يوم ، فليمسك الناس عن ملاذهم بعد أن حصنوا القلب بالخشية واللسان بالذكر . فليقبلوا مع الإمساك والخشية إلى بيت الله وقد دعاهم داعيه : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

[سورة الفتح : ٢٩] .

أي سلوك يطبع الأمة على وحدة مصونة وألفة بارة ومحبة خالدة مثل هذا السلوك المنتظم المرتبط بآيات الكون والمعترف بخالقه ؟

أي سلوك بل أي أسلوب يمكن أن توحد به أمة بعد هذا الأسلوب التربوي الفذ ؟

في لحظة واحدة لحظة الفجر الصادق يتم الإمساك ، والنداء واحد ، والمعبود واحد ، والقبلة والغاية متحدتان .

بدأ الصوم بهذا العبيق المسكوب على الكون والضوء السابح فيه فليبدأ السعي .

والنفس بطهرها وصومها خفيفة الظل طيبة الأثر .

كل قد انتهى من شر نفسه فالتقى على الخير مع غيره عبداً للمخالق وأخاً للمخلوق .

وإذا النفس أرادت أن تنساق في فترة ضعف لهاها تذكرت صومها فأبصرت .
وإذا الشيطان طاف بهذه النفوس يرجو غوايتها تذكرت الله وهي صائمة خاشعة فرجع الشيطان من ساحتها .

سلاح من الطهر الدائم يحمله المؤمن متجدداً بشعائر دينه ، وير تطيب به الدنيا ينبع من قلبه ويمليه يقينه .

فتنتلق الهمم قوية بيقينها ، ناعمة بإيمانها ، باسمة بحبها ، راضية بربها ، محفوفة بطهرها ، آمنة في سعيها ، متأهبة للقاء ربها .

وتمضي ساعات النهار مع آناء الليل ندية السعي طيبة الذكر ، يغمز الإنسان مع بسمة الفجر الأول فيض من النور .

يجرر إرادته بالتجرد لله الواحد الأحد ، ويجرد النفس من نوازع الهوى والشهوة .

وإذا كان الصوم قد فرض على الأمم الماضية ليظل جبل الإنسانية موصول العزيمة فإن رمضان الذي فرض الله صومه على المسلمين لم يكن مقصوراً على الكبار وحدهم ، بل الأطفال يمرنون على الصوم لينشعوا على العزيمة والإزادة والصبر وحسن القصد .

عن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم ، فكنا نصومه بعد وتصوم صبيانا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون عند الإفطار .

وإذا كانت العادة ترسخ في النفوس وتعمل عملها في توجيه الأمم والجماعات فإن تعويد الصبي الصوم وتربيته عليه وهو لم يفرض عليه بعد ينتج أمة طابعها العزيمة والجد وطبعها الإرادة والصبر .

والإنسان يحتاج في رحلة الحياة تلك إلى رفقاة صالحة صادقة تعينه على نفسه إذ هو في ضعفه البشري يحتاج إلى العون والمساعدة لينتصر في معركة الحياة .
ومن هنا مدح رسول الله ﷺ جليس الخير وشجع عليه وذم جليس السوء وحذر منه .

وإذا نحن تأملنا ما يصنعه الصوم من إتاحة جو مشحون بالطهر ووجود أمة متمسمة بطابع واحد وجدنا هذه الفريضة كغيرها عاملة في تحقيق التآلف الإنساني والسلام العالمي ونحن نلمس ما تحققه من وجود المودة بين الرفقة الجادة الصادقة التي لا تقبل منكرًا ولا تحرض عليه وتمسك عن دخول الزور والعمل به مع إمساكها عن الطعام والشراب لتصهر العزيمة الفردية مع العزيمة الجماعية في بوتقة واحدة ، بوتقة الصوم الطهور واللسان العف والصبر والتجرد ، وهي بوتقة لا تدع الإنسان يفلت من نفسه فيتسلط على غيره .

ومن أودى نفسه بالشهوات والمفاسد امتد شره حتمًا إلى غيره .
والإنسان لا يجيا وحده بل يعيش فردًا في جماعة لها حقوق وعليها واجبات .
فوجب أن يفرغ الفرد أولاً من حساب نفسه ثم يتجه خالصًا مشرقًا إلى غيره .

فتلتقي القلوب وقد رفع العازل ، عازل الشهوات الذي يحطم الروابط ويحجب عن القلب نوره وضيائه .

ونور الله متصل دائمًا لا ينقطع أبدًا وقلوبنا صالحة للإضاءة .
والعازل فقط هو الذي يحول بين النور الممتد وبشاشة القلب وهو من أهوائنا وشهواتنا .

فإذا جاء الصوم ليرفع العازل فقد مكن القلب أن يتصل بمصدر الخير

والنور . وأن ينبعث جادًا مخلصًا لإحراز الخير الذي يقربه من ربه ويحرره لخالفه ، وهذا عمل الصوم في الفرد والجماعة :

رفع العازل من شهوات النفوس وأهوائها ليلتقي الناس على مبدأ الخير العام ، وقد وجد الفرد عونهُ في البيئة النظيفة والسلوك العف .

ولا يمكن أي إصلاح أن يتم إلا من داخل الفرد ، إذ لا يمكن تصور مجتمع بدونهُ كما لا يمكن قيامه وبقاؤه إلا بصلاحيته .

فالعامل في تحصيل الفرد تأسيس كامل للأمة ، وإهمال شأنه هدم وضياع لمستقبلها ولا أخال الفرد يصلح وقد فسد قلبه وانحرفت غايته .

الحياة لها غاية ، والإنسان مع الحياة يعظم بغايته ويتجدد بها ، والأمة في مجموعها لابد لها من غاية توحد بين أفرادها ، والإطار العام للإنسانية لا يتم إنسجامه مع تنافر الغايات وتناقضها .

فالإنسانية لكي تسلم وتأمين وتطمئن وتجنّي ثمرات الأرض وتستقبل بركات السماء تحتاج :

أولاً : إلى الفرد الذي يعرف غايته ويعمل من أجلها بكيانه كله .
وآخرًا : إلى الأمة التي تدرك رسالتها وتسعى لغايتها بحيث لا يتعارض سلوك الفرد مع غاية الأمة حتى لا يقع التنافر وتنفك الروابط .

وإذا تأملنا في المباديء التي يصطنعها البشر والمذاهب التي يتحلونها ألفيناها جميعها قاصرة عاجزة لا تصلح لإمتداد الإنسانية والبر بها لأن غايتها عاجزة وقاصرة .
والإنسان معها عبد منفعة وشهوة لا يلتقي مع غيره إلا في الحدود التي تملئها عليه منفعته وشهوته .

وينبني على هذا حتمًا تصارع الأهواء والشهوات وقيام حروب طاحنة بين الأفراد والأمم والجماعات .

وإذا نحن أنصفنا الحقيقة لم نجد غاية بارة بمصير الإنسان يمكن التقاء

الإنسانية عليها سابقها ولاحقها حاضرها ومستقبلها في حب ومعرفة ، وألفة ومودة ، وإيثار ورحمة ، لم نجد غير الغاية التي تتجه إليها عبادة المؤمن ، الله ، وكفى .
فكل غاية دونها قاصرة في تقرير مصير الإنسان عاجزة عن الوفاء بحقه مفرقة له مع غيره .

وهذه الغاية وحدها هي الهادية الراشدة المجمعمة .

تقرر مصير الإنسان الممتد فلا تدعه يحيا في غموض وحيرة وتوجس بل تأخذ بيده إلى جنته فيدرك مبدأ ونهايته ، ويعلم مراحل سيره فتستقيم الدنيا بمعرفة حدودها ، وتطيب الآخرة وقد عرفت النفوس ربه وأبصرت قرارها ومستقرها .

وكل غاية دونها مهما عظمت لا تخرج بالإنسان عن حدود دنياه وما أقصرها !
وتحجبه أن يعد لأخراه وما أخطرها شأننا وأطولها !

وتستطيع أن تدرك عظمة الإسلام حين ترى أن شرائعه كلها تقوم على هذه الغاية الرفيعة التي تعلو بالفرد وتبوءه أكرم منزلة .
وتعصم الأمة وتعددها لأعظم رسالة .

وتتسع للكون فتجمع العباد على رحابة الحب وطهارة الصدق وطمأنينة العدل وسعة الرحمة .

ولنتجرد عن الهوى لنرى صدق ذلك في شرائع الإسلام كلها وبالأخص في الصوم الذي نحن بصده ، والذي قال الله عنه في حديث قدسي : « الصيام لي وأنا أجزي به » .

ولقد شاء الله لي أن أكتب هذه الصحائف والقطار يتحرك بي في سفر شعرت معه أن الإنسان مهما طال مقامه هنا فإنه مفارق .

والحق أن القطار بعمله يحكي قصة الحياة : حل وترحال ، وفراق واستقبال في منطقة يمضي بليل ، وفي أخرى يسطع عليه النهار . ودنيا الناس لا يبقى ظلامها ولا يستديم عليها النهار .

تحرك بنا القطار فشعرت بروح العبادة تسري في نفسي وأنا أرى الحياة ممثلة في تلك الصورة الساكنة المتحركة ، العابثة الضاحكة ، الجمعة المفرقة .

فأيقنت أن عزيمة تبقي على الإنسان ولا توزعه بين المتناقضات ، وإرادة تمضي به محرراً لأبر الصفات ، موصولة حتماً بمصدر الحياة وأصل البقاء ، وأن عبادة تنتج هذه العزيمة وتحفظ هذه الإرادة ، إنما هي عبادة ربانية صادقة شرعت لصون الحياة وتذليل عقباتها ، كما شرعت لتقوية الإنسان وحفظ كيانه .

وذاك هو الصوم المفروض لتربية الإرادة وتقوية العزيمة وطهر النفس وسمو القصد .

ذاك هو الصوم المتجرد الذي يقصد به رضا الله
قرأت الصوم المفروض في كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] .

وتأملت معها : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

وتأملت قول رسول الله ﷺ : « الصيام جنة » أي وقاية والتمست النتائج المترتبة على التقوى فوجدتني أمام هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [سورة الطلاق : ٢، ٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٩] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٦]

﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

فأيقنت مع النظر إلى الواقع والتأمل في كتاب الله أن الوقاية في الصوم شاملة
وأن التقوى وهي غاية الصوم بارة بحاضر الإنسان ومستقبله وفيه بأمر دنياه وآخرته .
لاشك أن الإنسان في مراحل سيره يمر بمضايق شتى فهو لا يعبر الطريق إلى
جنته على بساط الراحة وترف النعمة ، بل يصل إليها عن طريق تربية النفس وعصمة
الفكر والرضا بالحق .

وهذا الطريق يصطدم حتمًا بأهواء الناس وشهواتهم .

والذي يعبره يتعرض يقينا لمتاب شتى وخاصة إذا وجد في عصر تعدم فيه
الرفقة الصالحة وتتراحم الحياة بالغفلة ويتسابق الأحياء في نهم على الشهوات والملاذ ،
والإنسان وهو اجتماعي بطبعه يتأثر بالبيئة والمجتمع العام أيما تأثر .

هنا يحتاج السير على طريق الحق اليقيني إلى مغالبة الهوى واستقرار النفس
بالحق وطمأنيتها به . كما يحتاج إلى صبر في معالجة السير إلى الله ، وعزيمة تحمل
الإنسان فتضي به مع العواصف في استقرار ورشد وثبات .

وذاك لا يتم أبدًا إلا بعون من الله ووقاية صادقة تحفظ الإنسان من جميع
جهاته وترعاه من كل جوانبه ، والوقاية لكي تؤتي ثمارها وتبر بنتائجها لابد أن تقوم في
النفس وأن تحيا معها لتبسط دائما بالهوى المتطلع وتحرس الجوهر الأصيل . ترد سموم
الباطل وظلمته بأصالة الحق ووضاءته . فتقي النفس كل وباء منتشر ، وتحفظها وهي
تمضي من جحيم الباطل المستعر .

الإنسان من لحظة ولادته يمر بمضايق يحتاج معها من أول لحظة إلى يد العون
والمساعدة ، فهو في لحظة ولادته يحتاج إلى من يستقبله ويبر به ويرحمه .

يحتاج إلى الرعاية الدائمة في قضاء ضروراته المتعددة وهو لا يعبر عن نفسه
فيما يطلب أو يرفض ، بل تعبر له القدرة بلسان العطف والرحمة .

يظل الإنسان هكذا محتاجًا إلى غيره يسانده ويمده بتجاربه السابقة حتى

يشند عظمه ويقوى ساعده ، فيجد أمامه كونًا فسيحًا تبهره نجومه ، وتذهله شمسه ، ويتقلب عليه ليله ونهاره .

ويجد نفسه يحيا بين هواء ينعشه ونبات يغذيه وحيوان ينتفع به .

يجد نفسه بين بشر وحجر وزرع وثمر وسماء وهواء وظلمة وضياء . وهو لا يسعى في الكون وحده ، بل يحيا في مملكة آهلة بالمخلوقات غنية بالعجائب والمعجزات .

فيتلقى عن الكون الدرس الأول ، وهو درس يناله بكثرة سؤاله عما حوله وقد يغريه التطلع وتحته غريزة حب الاستطلاع على البحث والتنقيب والمعرفة ، فيمتد الدرس إلى دروس وتتشعب المادة إلى مواد .

ثم يجد غريزة حب البقاء تلح عليه أن يسعى ليحيا وأن يعمل ليقى ، وهنا يتشعب الدرس إلى دروس يراها فيمن حوله ما بين ممتلئ ومحروم ، وظالم ومظلوم ، وغني وفقير ، وصعلوك وأمير .

يفكر في سر هذا التفاوت فيجد أن المال هو العامل الأول ، وهو عامل يسمونه عصب الحياة وفيه يتنافس الأحياء ، فيعمل جاهدًا لحصوله ، ويكد مجتهدًا لتحصيله .

وهنا يقع التزاحم ويتشعب الدرس إلى دروس ، فمن أين ؟ وكيف ؟ وإزاء هذا التشعب في المطالب والضرورات توجد المضايق وتقام العقبات .

ثم هو يدرك من أمره أنه لا يقيم هنا طويلا ، بل يبقى إلى أجل محدود ثم ينتقل ، يرى ذلك عمليًا في نفسه ومن حوله .

فيجد نفسه مرتبطًا بمصير ممتد وحياة متصلة معلومة في حاجة إلى عمل وكد . وما وراء هذه الحياة الدنيا في حاجة إلى طهر الكد وتقوى الزاد ، والإنسان هنا وهناك يتعرض لمضيقات لا بد من التزود لها والاستعانة بالله لتفريجها والخروج منها .

إلى أين أيها الإنسان ؟

إلى حياة أخرى ، إلى صحوة باقية ، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

والجسم الذي فتن به وفتن من أجله قد أودع التراب وانحصر أمره في دائرة ضيقة دائرة القبر واللحد !

ثم ماذا بعد هذا ؟

امتداد وبقاء لروح عادت إلى ربها وانتهت إلى مصدر وجودها .
فأنت ترى بعد مضايق الحياة المعلومة لك مضايق في خط السير الطويل الممتد .

وهنا يمكن أن نتساءل ؟

هل يستطيع الإنسان أن يعالج الأمر في كل هذه المراحل بمحض الفكر والتقدير ، أو أنه في حاجة دائماً إلى العلي القدير ؟

لا أخال الذين يظنون المخرج الذي عنته الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [سورة الطلاق : ٢] إنه ضيق مالي يعقبه رخاء ، أو مرض يتبعه شفاء فحسب .

ما أظن هؤلاء إلا أناسا حصروا دائرة الخير وضيقوا عمل التقوى ، فالتقوى تلازم الإنسان في مراحلها كلها .

ترد وتدفع ، وتعصم وتحفظ ، وتضيء وتبهر .

تلازمه وهو يمضي في حياة السعي والعمل ، وتسانده ساعة الحساب والجزاء وتضيء له الطريق وهو يسعى إلى المصير الدائم والحياة الخالدة .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة الحديد : ١٢] . وفقدانها كما يسبب الهم والارتباك في شؤون الحياة يقيم الإنسان على ظلمة حالكة في السير الممتد من قريب وبعيد .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [سورة الحديد : ١٣] .

فالنور يأتي من هنا ، إيمان بالله وتقوى : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [سورة الجن : ١٣] .

قلت : إن التقوى تلازم الإنسان في مراحلها كلها .
والإنسان معها يقوم بالتبعات المنوطة به والواجبات المتعلقة بوجوده وهو لا يوصف بها إلا إذا برهن بسعيه على حقيقتها والتخلق بها .
وذلك يقتضي حتما أن يمر الإنسان بظروف مختلفة وشئون متباينة .
ليرى موقفه في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والبذل والعطاء ، موقفه مع ما يحب وما يكره .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ . قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٧٧] .

تر أن صفة التقوى بعد صفة الصدق مرت بمراحل :
من الثقة في الله ، والاستعداد لليوم الآخر ، والاعتراف بالكتاب والنبين .
وذلك يستلزم التجرد عن الهوى وطرح التقليد والتنزه عن التعصب المقوت كما مرت على اختبار النفس بالبذل والعطاء على ذوي القرى واليتامى والمساكين ، كما مرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما سبيلا التربية العملية الجادة والخلق البصير .

ثم مرت باختبار الإنسان بالبلاء بعد اختباره بالفرائض والنعماء .
فوقفت عند وفاء الإنسان بالعهد وهو خلق النفس العزيزة بصفاتها المعتدة بخالفها ووقفت تشهد أمر الإنسان في حومة الوغى وشدة العسرة .
فرأت الصبر في المراقف كلها ثم حكمت بالصدق .

فأنت ترى التقوى قد صهرت بالتجربة والاختبار الطويل ، شأن الجواهر الكريم
والمعدن الأصيل : يمر بالانصهار والتصفية قبل الزينة والتحلية :
﴿ أَلَمْ نَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾

• [سورة العنكبوت : ١ - ٣]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٢]

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بَعْضًا ﴾ [سورة محمد : ٤]
﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

• [سورة الفرقان : ٢٠]

روى الطبراني : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ،
فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذي حماه الله من الشبهات ، ومنهم من
يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي افتتن » .

فإذا جاء الصوم مفروضًا ليعين على هذه المرتبة البالغة كان جديرًا أن ينزل
في شهره - القرآن : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

• [سورة البقرة : ١٨٥]

وفي تقديري أنه لا يمكن الإفادة بما في التنزيل إلا إذا أبر الصوم بنتيجته وأوفى
بغاياته « التقوى » .

فهي آية الرشد والمعرفة البارة والسلوك المبصر .

وبقدر ما في النفس من ثقة في العلي القدير تكون الإفادة من هدي الفرقان
وبيئات التنزيل .

وتستطيع بعد هذا أن تقدر عمل الصائم بالليل والنهار ما بين إمساك وذكر
وصلاة ، ودعاء ورجاء .

فتدرك معه أن ذاك كله يورث الخشية ويوفي بالغاية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وهي الغاية التي يفتتح معها باب الخير على مصراعيه ويتسع بها عمل البر وتنفرج أزمات الحياة .

وتتملئ حياة الناس بالرضا وما أكرمه !

وتطمئن قلوبهم بالذكر وما أحكمه !

يذهب من دنياهم الفقر وقد امتلأت قلوبهم بالقناعة والغنى .

ويرتفع من بينهم الفرع والخوف وقد اطمأنت نفوسهم بالإيمان .

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

[سورة المائدة : ٢] .

أكرم بعبادة الصائم الصادق وقد وفرت للحياة أمنها وللنفس طمأنيتها ، وللقلوب ضياءه ، وللقلوب نوره !

أكرم بعبادة الصائم وقد عصمت نهاره ، وأضاءت ليله ، وحكمت جوارحه !
أكرم به وهو يحيا مشمولاً بالتقوى مستنصرًا بالصبر !

فالصوم يجمع مع التقوى التي هي غايته الصبر الذي يعين على تحقيق هذه الغاية .

وتأمل قول رسول الله ﷺ : « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم والصيام نصف الصبر » .

إن التقوى والصبر يقومان بنفس الصائم الذي يتعودهما عن طريق العبادة المتكررة والفرائض المشروعة .

ويمكن النفس إذا أوتيت صبرها وتقواها أن ينتصر الإنسان في معركة الحياة ، وأن يسلم بين ظروفها المختلفة وأحوالها المتباينة ، وأن يظفر بفضائله وأخلاقه وهي مقومات نفسه وسفينته نجاته .

وإذا نحن تأملنا القصص الذي ساقه لنا القرآن الكريم نبراسا وعبرة ألفينا

الأمرين وقد التقيا يحوطان الإنسان بسياج من الحمى النفسي والاطمئنان القلبي والحشية البالغة والأمل الوثاب .

وقصة الحياة التي يشهدها الأحياء ، وتقوم أدوارها بهم وعليهم تحتاج إلى هذين العنصرين الهامين : التقوى والصبر . وبدونهما يقع الفشل والاضطراب وتأتي الهزيمة : هزيمة النفس أمام نوازع الهوى ودوافع الشهوة .
وإذا صرعت النفس بالهوى بطلت النهضة : وقام السفه مكان العزيمة والقصد .

وعلى ضوء هذا يمكن أن نتأمل قصة فتى على مسرح الحياة الواقعي لنرى عوامل النجاح أمام عواصف الحياة وابتلاءاتها المتعددة وسنن الله مطردة : ﴿ وَكَانَ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٢] :

أخ بين أخوته منحتة السماء سماحة وحسنا وجمالا ، نزل من قلب والده منزلا كريما إذ الوالد يرى له شأنا ، ويرجوه للحقيقة التي يراها في نفسه موروثه عن آبائه ، يعبث الشيطان بأخوته وما أشد عداوته ، فيحرك في نفوسهم وسائل الكيد بعد الحقد ، فيتقدمون إلى والدهم وهم يلبسون أثواب الرياء التي تشف عن مكر دفين وحيلة مصطنعة .

﴿ يَا أَبَاتَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ • أُرْسِلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١١ ، ١٢] .

والرجل يرى ببصيرته ما يخفيه ثوب الرياء فيقول : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [سورة يوسف : ١٣] .

وفي تقدير النفس أنتم لا تؤمنون عليه .

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ • قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٣ ، ١٤] .

أخذه من والده حملا وديعا وأمانة غالية ، فالتقوا به في الجُبِّ .

وانتقل الفتى من عطف الوالد وحنوه إلى قاع بئر استخرج منها فيبيع كما تباع - السلعة الرخيصة ، زهد بائعها وضمن شاربها .

وسرعان ما يرى الفتى نفسه بين قوم جاء به إليهم كيد إخوته ودرهم شاربيه ، فهو في نفسه صريع كيد ، وفي دارهم ابن درهم .

وهو الكرم ابن الكرم ابن الكرم ابن الكرم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم .

تأمل معي مراحل السير وأسلوب الامتحان الشاق للفتى الناشيء ابن يعقوب ، وهو يلقي في الجب ، ويباع بالدرهم ، ويجد نفسه بين أناس هو فيهم سلعة مشتراة وبضاعة منتقلة .

وها هي السلعة تتعرض لامتحان الإغراء بعد امتحان المشقة والبلاء ، والصمود لهذا الامتحان أصعب بكثير من الصمود لمحنة المشقة والبلاء ، وخاصة لمن كان في مثل هذا الموضع الذي لا يملك فيه نفسه ، فلا يملك أن يقبل أو يرفض حين يختبر في عفته ويمتحن في أمانته .

هي اشترته فظنت أنها ملكته ، فامتلكت زمام قلبه وشرف نفسه واباء حسه ، لكنها فوجئت حين رأت أن نفس الفتى نفس حر لا تؤسر بقيد ولا تخضع لإغراء ولا تذلل لشهوة ، وأيقنت آن ذاك أنها ليست أمام عبد مخلوق ، بل متعبد الخالق ، هو به حر طليق ، وهي أمانة . أسيرة . هوى ..

تحولت أمام نفسها إلى أمة هو سيدها ومملوكة هو مالكةها .

فعر عليها أن تتحول أمام مشتراها إلى هذا الوضع الذليل - وهي امرأة العزيز ، فلوحت بالسجن تخضعه وترضي إباءها .

لكن الفتى الحر استمسك بعفته ، واستغاث بخالقه ، واستعذب ما لوحت به ، وفضله على ما دعت إليه .

﴿ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣] .

استنجد بربه في صدق فنجده ، واستغاث به في ثقة ويقين فأغاثه ، ولاذ به
فحماه : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[سورة يوسف : ٣٤] .

أرأيت صبر الحر ويقينه ؟

أرأيت كيف يدفع ثمن عفته وإيائه .؟

أرأيت ما يتعرض له الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن
يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

ها هو ذا ينزل إلى جب من نوع آخر .

ألقى به في الأول كيد إخوته ، وألقى به في الآخر كيد امرأة العزيز .

وهو في الأول قد وجد سنده من الله ، فمن ألقته يد البشر لتخفضه استقبلته
يد السماء لترفعه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

[سورة يوسف : ١٥] .

وهو في الآخر يذكر الله ويدعو إليه ، وهو يعرف خيره في نفسه ويؤمن
بقضائه فيمن حوله .

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ عَارِيَاتٍ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٩ ، ٤٠] .

هنا يتسع الجب وقد ذكر اسم الله ، وينفج السجن وقد ترددت آياته ،
والنسوة يشهدن وهن يقرأن ما في الخواطر من قصد أبي ، ويدركن بفطرتهم
ما للنفوس من غرض خفي - يشهدن بما للفتى من إباء شاخ وعفة متألقة رطهر
فطري .

وتشهد امرأة العزيز - وقد أمضى يوسف في السجن بضع سنين - بأنها

راودته عن نفسه حصحص الحق إدن ، وآن ليوسف أن يخرج ليتبوا مكانته .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٤ - ٥٧] .

آن لليد التي امتدت ليوسف بالكيد أن تأتي لتطلب العطاء .

وللأخوة الذين تأمروا عليه أن يحضروا ليأتمروا بأمره .

هذا لقاء يتم بعد أحداث ، يدور فيه منطق التعامل بِالْحَبِّ ، وتختفي لغة المعرفة وَالْحُبِّ

﴿ أَتُتُونِي بِأَجْرٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ۝ قَالُوا سَتَرَادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٨ - ٦١] .

وهذا بلاء آخر يتعرض له يعقوب ، بلاء تحتمه الضرورة وتقضي به ظروف الحاجة .

يعقوب لا يأمن الإخوة على ما يطلبون : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ ﴾ [سورة يوسف : ٦٣] ولا يأمنهم عليه إلا كما آمنهم على أخيه من قبل .

لكنه يستوثق بالله ويفوض الأمر إليه .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [سورة يوسف : ٨٣] .

ويذهب الإخوة ويعودون كما عادوا من قبل دون أخيه .

ودلائل الصدق مهما بلغت في موقفهم هذا - لا تأخذ مجالها الطبيعي

في نفس الوالد المصاب ، بل يحرك هذا الموقف في نفسه الشوق لابنه الحبيب

﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ • قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [سورة يوسف : ٨٤ - ٨٦] .

ولنذهب إلى يوسف لنرى ما عنده .

نِعْمَ اللَّهُ تَتْرَى بَعْدَ بِلَاتِهِ ، فَهَذَا أَخُوهُ قَدْ اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ .

وها هم أولاء إخوته في الطريق إليه ينشدونه لبرهم ، ويطلبون القوت بين يديه :
﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٨] .

ويسبح الرجل بفكره في ماضٍ طويل ، ثم يتأملهم في ملاحظة المؤمن الحكيم :

﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٩] .

يا لهول المفاجأة !

أهذا يوسف الذي اجتمع عليه الكيد ، وبريء من دمه الذئب ، واستقبله
الجب ، واستضافه السجن ؟

أهذا يوسف الذي ابيضت عينا والده من الحزن ؟

﴿ قَالُوا أَأُنْتِكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أُخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ
مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

إيه يا يعقوب ! استقبل قميص البشري ، يحمله لك من حمل إليك نبأ الذئب
الكذوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفَنُّونَ • قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ
الْقَدِيمِ • فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آفَاقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٤ - ٩٦] .

بلى يعلم من الله ما لا يعلمون .

يعلم ما للتقوى من أثر ، وما لليقين من خبر ، وما للصبر من أجر مدخر .

سفينة الصبر والتقوى تصل إلى بر السلام ، ويعانق الوالد ولده وقد شمل الكل

الأمن والعمو والإيمان .

إيه يا آية القدر !

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠] .

أرأيت معي ما عملت التقوى ، وما أوفى به الصبر في واقع الحياة ؟

أرأيت ما تعرض له يوسف ؟

وما فعل اليقين الثابت والصبر الجميل ؟ ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

هل يمكن للحياة أن تطيب ، وللسلوك الإنساني أن يطهر بلا صبر أو يقين ؟

وإذا كانت الحياة لا يستقيم أمرها إلا بالصبر والتقوى .

فإن الصوم يفي بهما - وهو نصف الصبر - وغايته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

أرأيت ما تؤديه للحياة تلك العبادة ، وما تمد به الأحياء من عون يمكنهم من

تذليل صعابها ، ويحفظهم من رجسها ، ويصونهم من مفاتها ، ويمضي بهم إلى غايتهم

في عزم ثابت ويقين مستقر .

ذاك ما يوفي به الصوم من تقوى وصبر : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ

عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] .

ولكن هل يمكن كل صوم أن يكون كذلك ، ونحن نرى من عمل الصائمين

غير ذلك ؟

نعود فنذكر بما تعرضنا له في الصلاة : من أن الدين كل لا يتجزأ ، فأخذ

بعضه كترك كله : ﴿ أَفَتَرْمُونَ بِنِعْمِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِنِعْمِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ

ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا حِزْبِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٥]

وشتان ما يرى صوم تمليه العادة . ويرى صوم نسري فيه روح العبادة . ذاك

سببه الخوف من الناس ، وهذا دافعه الخشية من الله .
 ذاك لا يهذب نفسًا ولا يعصم لسانا ولا يربي خلقًا ، ورمضان على هذه
 النفوس هم ثقيل .

وهذا ينتج الفضائل كلها ، شأنه شأن الأمور التي يقصد بها وجه الخالق
 ويتقرب بها إليه . ورمضان على هذه النفوس خفيف الظل طيب الأثر ، تتمناه أن
 يقبل ، وتخزن إذ يفارق أو يدبر .
 ترضاه أن يكون الدهر كله ، ذاك صوم العبادة الذي ينتج الفضائل ويحقق
 الغاية .

وهو صوم الذين يأخذون أنفسهم بالدين ولا يفرقون أمره ، وينظرون إليه
 نظرتهم إلى الحياة يرونه حياتهم ، ولا يعرفون أنفسهم بغيره .
 أما أولئك الذين يأخذون من الدين الحظ الذي يرضى الناس عنهم ، والقدر
 الذي يحفظ في الناس وجاهتهم ، ويطوعونه لشهواتهم وأهوائهم ، فهم صنف يجيا
 لدنيا الناس ، لا يحذر الآخرة ولا يرجو رحمة الله .
 ولا يمكن أن نتصور للدين عملا مع هذه النفوس ، كما لا يمكن أن نبصر
 نتائجها أو نلمس غايتها .

إن الشمس وهي من إنعم الكبرى - يجيا على شعاعها من يجمع الشهد ،
 ومن يفرغ السم .
 والكمل تمدد الشمس .

ولكن شتان ما بين نفوس تتقبل هذه النعمة المهداة ، فترى من عملها شهدًا
 مذابا ، وبين نفوس تشملها النعمة فترى من إنتاجها مرا وصابا !
 والشمس واحدة على كل حال ، والعبادة وهي تشرق من مصدرها الأصيل
 تنسكب بنورها على الكون .

ولكن الناس يختلفون في تقبلهم للعبادة ، كما يتنوعون في سعيهم وسلوكهم

تحت ضوء الشمس .

والعبادة من مصدرها كوكب وضاء ، لكن نفوسًا لا تحسن أن ترى الضوء ،
وتختفي إذ يسطع النور .

ما ذنب الصوم مع هذه النفوس ؟

ما ذنب الصوم مع أعين لا تراه وقلوب لا تبصرو ؟ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

تلك نفوس تحتاج - أولاً - إلى الأصل الأصيل لكل خير وير : الإيمان بالله
المخالق الباريء المصور لتقبل الطيب وترد الخبيث .

فلا خير في عمل مع غيبة الإيمان ، وكل عمل مع الجحود هباء وخسران :
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴾ [سورة إبراهيم : ١٨] .
قد تسمع من هؤلاء ثقتهم في الله وتعلقهم به وإيمانهم بشوابه وجزائه ومغفرته ،
ولكنها أماني ، ودعاوي من غير دليل .

ليس الإيمان بالتمني ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل .

إن قومًا أهدتهم أماني المغفرة خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم قالوا نحن نحسن
الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

صائم بالليل يدير الكأس ، وبالنهار يبلغ في أعراض الناس .

ما يفعل الله بجوعه وعطشه وهو يتمرغ في رجسه وهواه .

إن رسول الله ﷺ قد حكم بالنار على امرأة صائمة قائمة تنال الناس
بلسانها ، وقد قيل له ﷺ : « إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ولكنها تؤذي جيرانها
بلسانها ، فقال ﷺ : لا خير فيها ، هي من أهل النار » .

أرأيت أن دعوى الإيمان لا تفيد ، وأن ظاهر العبادة لا ينفع .

شتان كما قلنا : بين شجر مخضر الطلاء ، وبين شجر أصيل ذي غصن

وغناء .

ذاك يأتيه الماء - وهو زاد الحياة - فيكشف طلاؤه ويدي رياهه .
وهذا يأتيه الماء ، فيمتد غصنه ويطيب ثمره ويعظم نفاؤه .

تأمل الصوم مع نفوس عرفته وقلوب أدركته .

تأمل صبر المسلمين وتقواهم في بدر وتواضعهم وبرهم وهم في أوج النصر في فتح مكة .

ألم تكن واقعة بدر في السابع عشر من رمضان ؟

ألم يكن سعيهم إلى مكة مع بعد الشقة في العشرين منه ؟

فماذا كان من عمل الصوم مع هذه النفوس ؟

أمدتها بالعزم والإرادة الحرة والصبر الكريم والشوق إلى لقاء الله . وهي تعمل في ميدان بدر يصل فيها سر الله ويجول ؟!

وأمدتها بالعضو وهي تقدر على عدوها الذي أخرجها وقتلها وبيت الغدر لرسولها .

وتسمع من لسان هذا النبي الكريم وهو يمضي إلى مكة التي غدرت به وتربصت له ، ومعه عشرة آلاف مقاتل تسمع منه يرد على من قال : اليوم يوم الملحمة . يقول : لا . اليوم يوم الرحمة ﷺ .

وتنظر إليه فترى جبهته تكاد تلتصق بدابته تواضعاً لربه وذلة لخالفه وهو يفتح للناس أبواب الأمن والرحمة . من دخل داره فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

ثم يجمعهم وهم الذين أساءوا إليه وتآمروا على قتله ، وهم موقنون أنهم مأخوذون بجرمتهم - لا محالة - فيذهلهم أن يسمعو من فمه الطاهر الكريم هذا اللطف في التساؤل : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

نعم تأمل عمل الصوم مع هذه النفوس وهي تنطلق في كل ميدان بهمم بارة وعزيمة راشدة وإرادة حرة ، تحذر الآخرة وترجو رحمة الله .

لم يكن الصوم عند هؤلاء صوم بطن أو معدة أو صوم عادة وخشية من الناس ، بل كان صوم الحر عن الضيم ، صوم الأبي عن الذلة والصغار ، صوم الكرم عن المنكر والغدر ، صوم الشجاع عن الجبن والتسلط . بل صوم اللسان عن السوء ، والقلب عن المعصية والعقل عن السفه ، صوم الأمة المتحابية المتآلفة ، صوم الجماعة المتوادة المتعاطفة .

صوم النبوة في سعيها الطهور وعزمها الصبور ، صوم الكرم عن الدنيا والأبي عن الفجور .

صوم أمين ممسك عن شهوة أو قول زور .

فريضة الصوم كأخواتها تعتمد في نتائجها على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهي تتميز بتجردها واتصالها بمصدر الخير والنور ، حتى الزمن في رمضان حين يسأل عنه زيد بن ثابت رضي الله عنه وقد تسحر مع رسول الله - ﷺ - كم بين الأذان والسحور ؟ قال : « قدر خمسين آية » يا الله زمن وضيء يقدر بالتنزيل وما يتلى فيه من ذكر حكيم - إنه لذنو شأن أي شأن عند العلي القدير .

وهذه الفريضة كغيرها تعتمد على القدرة ، قدرة الصائم على الصوم ، وإلا وجب الفطر وجاء القضاء عند القدرة عليه ، أو الفدية عند العجز الموقن به : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] .

وتأمل بقلبك ما أثبتته البخاري - رضي الله عنه - في هذا المجال :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل ، فقال يا رسول الله : هلكت . قال : ما لك ؟ قال : وقعت على امرأتي وأنا صائم ، فقال رسول الله ﷺ : هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال : لا . قال : تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا . قال : فهل تجد طعام ستين مسكيناً ؟ قال : لا .

قال : فمكث عند النبي ﷺ .

فبينما نحن على ذلك أتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر (١) قال : أين السائل ؟

فقال : أنا ، قال : خذ هذا فتصدق به ، فقال الرجل : أعلى أفقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين لابتها - يريد الحرّتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي ؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه . ثم قال : أطعمه أهلك .

أرأيت أن هذا دين الفطرة ، دين الحياة ؟ أرأيت أن هذه الفريضة وأخواتها لا يمكن إلا أن تكون وافية ببر الإنسانية وسعادتها وإخائها وأمنها وسلامها .

أرأيت أنه دين يسر لا حرج فيه ولا مشقة معه ؟

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] .

• • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْكُمُهُ اللَّهُ وَتَكْرُؤُهَا قَلِيلٌ خَيْرٌ لِّزَادِ النَّقْوَى وَأَتَقُونَ إِيتَاؤِي الْآلِ بَيْتِ﴾

[سورة البقرة : ١٩٧]

(٥) الحج

ها هو ذا رمضان قد مضى وخلف من ورائه علامة قبوله : خلق بار وسعي مشكور ، مضى رمضان بعد أن زود النفس بشحنة من النور الرباني ، يمضي معها المؤمن وهو على نور من ربه ، يمضي إلى العمل بشرف القصد ، ويتلقى النتائج مهما كانت بطهر اليقين .

فلا يكاد رمضان من كل عام ينقضي حتى تنهبا النفس للموكب الجماعي ، هيا إلى مجتمع عام ، هيا إلى بيت الله الحرام ، هيا حيث تلتقي الوفود من كل فج في حب ورحمة وإخاء عند الحرم الآمن والبيت العتيق .

نعم لا يكاد الناس ينتهون من فريضة الصوم التي تجمعهم على التحرر والتجرد والتقوى والصبر .

حتى يتهيأوا لفريضة أخرى ، فريضة الحج .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم هذه الفريضة ، سورة الحج أولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿ [سورة الحج : ٢٠١] .

وهي تفيد أن مجامع الدنيا كلها ستنتهي ، وأن الناس مجموعون لميقات يوم معلوم ، يوم الجمع الأكبر الذي يجزي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَأَلْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة الحج : ٥٦ ، ٥٧] .

مؤتمر سنوي عام يعقد في الحرم فرضاً في كل عام . يلتقي فيه الناس من كل فج ، يطرح كل منهم اللباس الذي اعتاده في إقليمه ويرتدي لباس الإحرام ، ويدخل إلى منطقة التجمع متجانساً مع جميع إخوانه وهو يردد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

فيتوحد ظاهره وباطنه ، ويلتقي مع إخوانه على مبدأ الخير العام « لا إله إلا الله » .

تلتقي أجناس مختلفة من جهات متباينة ، فلا يتفاضلون فيما بينهم بحسب أو نسب أو لون أو جنس ، إنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، يلتقون وصوت نبيهم يدوي في أعماقهم : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » . وفي ظل هذا الإيمان الخاشع والتجرد للخالق يدرس الناس شئونهم ويشهدون منافعهم ، إن المنافع التي تتم في مثل هذا الجو لن تكون إلا منافع خير وبر للإنسانية جميعاً .

شئون يدرسها المتطهرون من عباد الله ، الملبون الموحدون ، لن يكون فيها استدلال شعب أو استعمار أمة أو استغلال حق .

شعون تدرس في حرم يجد الطير فيه أمنة وسلامته ، لابد أن تراعى فيه كرامة الإنسان وأن تصان حرمة .

إن فريضة الحج كغيرها تعتمد على الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأول ما تفيض به هذه العقيدة على النفوس وهي تذكرها بتقوى الله وخشيته أن تهذب السلوك الإنساني ، وأن تضع المجتمعات في رعاية الضمير اليقظ فتجعل من المجتمع الإنساني مجتمعاً متعاوناً على البر ، إذ كل فرد فيه يعلم أن سعيه من ورائه حساب ، وحسابه من ورائه ثواب أو عقاب ، وأنه يمر بالدنيا ولا يقيم ، فمن وراء اجتماعه هنا جمع أكبر يجني فيه ما غرست يداه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ [سورة الزلزلة : ٨ ، ٧] .

ولا أجد شيئاً يمكن أن يصون المجتمعات الإنسانية ويرعى إخوانها مثل ما تصنع خشية الله والخوف منه . هنا يقبل الإنسان وقد طرح هواه وتمخلى عن أنانيته .

وإذا تأملنا فريضة الحج من بدايتها - وهي تفرض الإحرام من مواقيت محددة . وللإحرام لباسه وتلبيته وأدابه الخاصة والعامة : وللإحرام مظهره الجامع الذي يجعل الناس يدخلون إلى منطقة التحريم وقد طرحوا ما به يتفاضلون ويتفاوتون . واتجهت نياتهم وعزائمهم إلى التزود من العمل الصالح الذي يقربهم إلى الله فلا رقت ولا فسوق ولا جدال في الحج بل ذكر لله وبر بالخلق ، منافع مشتركة تعود بالخير والبر على الإنسانية جميعاً - وجدنا وحدة في كل شيء : في العقيدة فإله واحد ، والكل يستجيب لأمره ويتغني مرضاته وهو يهتف متجرّداً لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وحدة في الاتجاه : فالقبلة واحدة .

وحدة في الزمان : فالحج أشهر معلومات .

وحدة في المكان : فالطواف والسعي والوقوف ورمي الجمار والنحر والتلبية لها

أماكنها المخصصة .

وهذه الوحدة الشاملة تجعل عواطف الناس الذين أقبلوا من جهات متباينة تنصهر في بوتقة واحدة فتمضي إلى طريق واحد هو طريق الخير والبر ، طريق الهدى والفلاح ، الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف معه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] .

هذه الفريضة في الإسلام من أهم الفرائض التي تربط الأول بالآخر والسابق باللاحق ، وتجمع الأقطار المختلفة على عبادة مشتركة تصل موكب النبوة من عهد إبراهيم ، وهو الذي أقام البيت وشيده ، وأذن في الناس بالحج بأمر ربه : ﴿ وَأُذِّنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿ [سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨] .

البيت بيت الله رب العالمين : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ٩٦] .

وهو أول بيت وضع للناس ، فالصفة العامة فيه قائمة ونسبته إلى الله لم تتخل عنه حتى في عهود الجاهلية .

ونحن نعلم أن أبرهة حين أراد أن يستولي على البيت الحرام وأن يصرف الناس عنه وساق إبل عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ، وطالب عبد المطلب أبرهة أن يرد الإبل قال أبرهة : أتسأل عن الإبل وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك . قال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه !

نعم نسبة البيت إلى الله ظلت قائمة على مر الدهور والأيام ، وهذه النسبة تجعل من البيت موثلاً للناس جميعاً وحرماً آمناً للعالمين .

وإذا كانت نسبة البيت إلى الله الواحد الأحد فمن الطبيعي أن يكون باب القصد إليه هو الاعتراف برب البيت والإيمان به .

وهذا الاعتراف في ذاته هو طريق السلام والأمن والخير والبر ، إذ هو جماع الفضائل النفسية كلها .

وهو الحصانة الكاملة التي تصون الإنسانية من الفرقة والتنايز والبغضاء والحسد ، وتعصمهم من الأنانية البغيضة وتصرفهم عن الهوى الكذوب ، وتجرد عزائمهم للغاية العليا التي كلما تعلقت بها قلوبهم زادت محبتهم ، وقويت أواصرهم ، وصدق تعاونهم ، وعظم إيثارهم .

ومن بداية الإحرام كما ذكرنا تلمس هذا الاعتراف وتسمعه : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك .

ألا إن الأيدي التي شيدت هذا البيت وأقامت دعائمه ابتليت في صدق الاعتراف بالله والتجرد له ، فكانت في مرتبة من الصدق صح معها أن تنال هذا الشرف الخالد وأن يوكل إليها أكمل عمل قدسه الإنسان وتقبله الرحمن .

رجل ألقى في النار وهو يحارب الشرك ويحطم الأصنام فما زاده ذلك إلا إيمانا بالله وثقة فيه !

وهو الذي طلب منه أن يذبح ابنه - وما أشق ذلك على النفس - فاستجاب راضياً لأمر ربه ، وابن عرض عليه الأمر : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آبِيتُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

[سورة الصافات : ١٠٢] .

أليست هذه أعلى مراتب الصدق والتجرد لله ؟

هل هناك بلاء أصعب على النفس من هذا البلاء ؟

تلك شهادة السماء : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة الصافات : ١٠٦] .

إن العظام كفؤها العظماء :

فإبراهيم وإسماعيل بعد هذا جديران أن يشيدا أول بيت وضع للناس .

وهما يشيدان البيت يسألان الله أن يتقبل ، ويدعوانه أن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له .

ثم يطلبان من الله رسولا يهدي الإنسانية إلى الحق ويرشدها إلى الخير ويطهرها

من رجس الشرك ويزكيا من سوء القصد .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ • رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ١٢٦ - ١٢٩] .

ألم تكن هذه دعوة مستجابة ؟

ألم يكن النداء الذي أذن به إبراهيم للحج نداء وعاه الزمن وحفظه التاريخ ؟ إنه نداء للقلوب ، فلا عبرة للأشباح تغدو وتروح ، وإنما العبوة بالقلوب المبصرة والأرواح المستنيرة .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] .

نعم إن النداء الذي أذن به إبراهيم للحج وعاه الزمن واستجاب له القلوب .

سل الشوق دوما وسل الحنين ؟

وسل البكى بدمع سخين .

سل موكب الطهر هنا وهناك .

سل دار القريب ودار البعيد .

سل الحرم الآمن والبيت العتيق ، سلهم جميعا عن صدق النداء ، نداء الخليل

بوحى السماء .

﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكُّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ • لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨] .

لييك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك

لا شريك لك لبيك .

إن الإسلام بفرضية الحج ، أرسى للإنسانية دعامتين :

الأولى : الاعتراف الكامل بالآثار الطيبة للنبوات السابقة التي لم تخالطها أهواء الناس ولم تنحرف بها شهواتهم ، فجميع الأنبياء عندنا موطن التكريم والتبجيل . ولكن أهواء الناس هي التي فرقت بينهم فتخاصمت باسمهم وهم من ذلك براء . والإسلام العظيم هو الذي أحيا الاعتراف بهم جميعاً وقدمهم للإنسانية إخوة متحايين متعاونين في حمل الحقيقة عبر القرون .

« مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأكمله إلا موضع لبنة .. » - الحديث (١) :

فاليهودي على هذا إن تجرد عن هواه وأنصف دينه التقى مع الإسلام ، والمسيحي إن هو تحرر من هواه وأنصف رسوله التقى مع الإسلام .

وهم جميعاً في تقديرهم لإبراهيم وادعاء نسبتهم إليه إن هم أنصفوا الحقيقة . علموا أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حقيقياً مسلماً :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٨] .

﴿ مَلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] .

هذا دين الإنسانية كلها والأنبياء جميعاً دعائه وعاملون له .

الأخرى : أن الإسلام قد أنصف أيضاً الحقيقة المظلومة التي شوهت على يد الأتباع الذين خالفوا رسلهم وأنبياءهم ، وردها نقيّة صافية ، تعانق في ساحتها جميع الأنبياء والمرسلين والتقوى على فطرتها الأطهار من الأولين والآخرين .

لهذا لم يكن الحج مجرد فريضة تهذب النفس وتعصم السلوك وتجمع أهل الجليل الواحد على الخير والبر ، بل كان عنواناً للأخوة الإنسانية العامة على مر الدهور

وتقديرًا للنبوات التي فرقها الأهواء وانحرفت بها الشهوات مطالبًا باتباع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين .

دين هو في الأصل واحد .

وأنبياؤهم جميعًا يأخذون من مشكاة واحدة ، وينتسبون إلى أب واحد وهم جميعًا على ملته .

من هنا كان هذا الموكب المهيب الذي يقام فرضًا في كل عام إعلانًا قويًا عن وحدة الإنسانية في الاستجابة لرب العالمين .

وعن سلامها وهي تتأخى في طهر ومودة ، وتعلن ولاءها لصاحب الملك والنعمة وهذا دعاء النبي وقد رأى الكعبة المباركة : « اللهم زد بيتك هذا تشریفًا وتعظيمًا ومهابة وتكریمًا ، وزد من حجه أو اعتمره تكريمًا وتشریفًا وتعظيمًا وبرًا ، اللهم أنت السلام ومنك السلام حينًا ربنا بالسلام » .

وكان هذا الموكب أيضًا تهيئة للإنسانية كي تتدارس شعونها وتتداول منافعها في حرم آمن وقلب غير آثم ، لا فسوق ولا جدال ، بل زاد من الخير ولباس من التقوى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٧] .

وكان هذا الموكب أيضًا شبكة الاتصال القوية بين الجهات المختلفة والأقاليم المتباعدة تجتمع كلها في صعيد واحد ، ثم تعود وقد انصهرت في بوتقة واحدة .

تعود وفي قلبها للقاء حنين ، وبين ضلوعها للعود شوق ، وفي خواطرها للإنسانية وفاء ، وفي صلواتها وهي تتجه دائمًا لمنطقة التجمع تقدير للخير أيما تقدير ، وفي مشاعرها وعواطفها وفاء للمعاني والمثل التي حملتها إياها فريضة الحج .

وفي فرائضها الأخرى التي تؤديها ترديد للمعاني الإنسانية الفاضلة في نمط آخر لتطبع النفس على البر والخير ، كل يؤدي صلاته وما أبرها ! وكل يؤتي زكاته وما أكرمها !

وهكذا لا يدع الإسلام الفرد ينطوي على أنانية مفرقة ليحيا وحده وإن هلك

الناس ، بل يطبعه بشرائعه وآدابه على الإيثار والحب والسلام والرحمة ، ويجعل سبيل التقرب إلى الله البر بعباده والألفة بين خلقه ، وذلك هو أكرم السبل وأضمنها لرعاية الإنسانية وحفظ حقوقها ، وهو أضمن طريق لإيجاد سلام دائم ينبع من ضمير الفرد ولا يفرض عليه ويتصل بعواطفه ومشاعره ، وهو كذلك أضمن طريق لإيجاد رقابة صادقة من ذات الفرد على نفسه .

ويمكن للوحدة الإنسانية أن تتم في ظل دين لا يفرق بين جنس وجنس ولون ولون ولا يجعل للقوة والغلبة سبيلا للسيطرة على نفوس الضعفاء بل يمسك بزمام النفس مؤمنة صادقة فلا ينتج عنها إلا ما يؤلف القلوب ويقيم المودة ، وهو يجعل قوة القوى في أن يمسك زمام نفسه وأن يصرف عن الناس شره : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) .

فأنت ترى بعد هذا أن فريضة الحج تخدم قضية السلام العالمي وتفتح باب التفاهم في جميع القضايا التي تخص المجتمع البشري على اختلاف ألوانه دون ما تفرقة بين جنس وجنس .

وإذا كان العصر الحديث قد ألبأته ظروف التوتر المتتابة لإقامة هيئة الأمم أو عصبتها أو مجلس الأمن فإن الإسلام العظيم قد جعل من فرائضه إقامة هذا المؤتمر العالمي بخصائصه الحية ووسائله النظيفة ، وجعله قرينة إلى الله وتبادلا للمنافع ، وجعل المنطقة التي يتم التجمع فيها منطقة « محرمة » يحرم فيها الفسوق والجدال ، كما يحرم فيها التعرض لمخلوق بأذى أو إثم أو قطيعة .

ومكان يجد الطير فيه أمنه وسلامته جدير أن تجد الإنسانية فيه طمأنينتها وإخاءها وبرها وأمنها وسلامها ، لا تناهز ولا تقاطع ، ولا أثرة ولا استغلال ، لا تفاضل بحسب أو نسب ، لا تسلط بقوة أو جاه بل خشوع وخضوع لله الواحد القهار . هذا الدين بحق : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

(١) حديث شريف .

تأمل مدى الحنين الذي يحمله قلب المتوجه إلى البيت الحرام ومدى الشوق الذي يتأجج بين ضلوعه .

تأمل الحج من جميع جهاته وأحكامه لترى أنه مؤتمر إلهي شرع فرضاً كل عام على القادرين من المؤمنين ليذكروا الله ويشهدوا منافع لهم .

وهذه الضمانات بصورها العملية الجادة لا تحوج "الإنسانية إلى حراسة دولية تستوجب اعتمادات مالية ، هذه الضمانات لا يمكن أن تتوافر في المؤتمرات من صنع البشر ، وهي تجعل للقوي صوتاً نافذاً بما تعطيه من حق « الفيتو » كما يقولون ! وكثيراً ما تتم الاجتماعات في تلك المؤتمرات فلا يسمع فيها إلا التناز وإلقاء التهم ، بل كثيراً ما تساق الدول الصغيرة وراء دول أخرى تربطها بها مصالح خاصة !

الأنانية والأثرة والمصالح الذاتية هي التي تسيطر على نفوس المجتمعين ، ولهذا نستطيع أن نقرر : أن تلك المؤتمرات - وإن أجلت الصدام الواقع بين الأهواء - لن تعصم الإنسانية من خراب مدمر وحرب مهلكة .

كيف لا ؟ وفي ظل هذه المؤتمرات سلبت حقوق وسفكت دماء ، واغتصبت أوطان وبات العالم مهدداً ليل نهار بحرب مدمرة مهلكة .

ولم تستطع تلك المؤتمرات أن تفعل شيئاً ما يسوق إلى الناس أسباب الأمن والسلام !

لكن مؤتمر الحج الذي يقام باسم الله يذكر الإنسان بأخيه : « إن أبأكم واحد وإن ربكم واحد » وتجعل أقربهم إلى الله أبرهم بعباده .

وما أجمل أن ترى الحج في موكبه الجامع على عرفات ، وأن تتأمل ما يتردد فيه من ذكر وما يتلى فيه من آيات مع الطبيعة المسلمة السمحة على جبل واسع الأرجاء ، يلتقي الموكب كله ليطم الحج ، والحج عرفة ، الناس جميعاً محرمون ، فهم في لباس واحد وهم يلبون ويعبدون ربا واحداً !

لحظة فريدة يتهبأ فيها للوفود أن تسمع كلمة الإسلام .
وجدير بها فعلاً أن تكون كلمة الإسلام في هذا اليوم الذي كمل دين

المسلمين فيه يوم له قداسته في نفوس الحاضرين وَمَنْ وراءهم . سمع المسلمون فيه كلمة الإسلام من فم رسول الله ﷺ .

أعلن الرسول في صراحة وصدق حقوق الإنسان .

وثيقة باقية خالدة تعلن عن طهر النفوس وصفاتها كما تعلن عن عظمة الإسلام وكاله .

قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد : فيا أيها الناس اسمعوا مني أئين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه » .

وبعد أن تحدث عن الربا وأبطله - وما أضر ذلك على الفرد والمجتمع - وتحدث عن القتل العمد وشبه العمد قال :

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكن قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

وبعد أن تحدث عن النسيء وأبطله قال :

« إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح .

فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة

الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .
أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفسه
ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فأني تركت فيكم ما إن
أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنتي ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .
أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أبأكم واحد ، فكلكم لآدم ، وآدم من
تراب .

أكرمكم عند الله أتقأكم ، ليس بعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى .
ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أليست هذه دعائم الأخوة الإنسانية والسلام العالمي تقرر من فم الرسول ﷺ
على عرفات .

« لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » - المساواة .

« إن أبأكم واحد وإن ربكم واحد » - الوحدة العامة والأخوة الإنسانية البارة .

« إنما المؤمنون إخوة » - أخوة الإيمان .

« لا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس » - حرمة المال .

« اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً » - حرمة النساء .

« إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم » - حرمة المال

والدماء - أليست تلك مجمل الحقوق التي يجب أن تراعى لتصان الأخوة الإنسانية ،

وترعى حرمت الناس ؟

هذا ما يتردد في الحج وما يجب أن يتم ، فيه منافع مشتركة للإنسانية جميعاً .

لا يتردد في المكان إلا ما هو إنساني الفطرة وما فيه بر بعباد الله جميعاً ،

إذ كل شيء في المكان يصدر باسم الله والله رب العالمين .

وإذا نحن وقفنا قليلاً عند الآيات التي تحدثت عن البيت الحرام في سورة الحج

رأينا أنفسنا أمام حقائق ثلاث :

١ - أن البيت الحرام للإنسانية جميعًا ، وقد اجتمع في الآية الأولى مع سبيل الله جعله للناس جميعًا : « سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » - ضمان حرمة البيت وصيانة لحقه ، لتصان حقوق الناس معه .

٢ - أن الشرك بالله هو الداء الويل الذي يفتك بالإنسانية ويحطم روابطها ويقطع ضلتها بمصدر الخير ، ويذهب بها في أودية سحيقة تنوزعها الأهواء وتأسرها الشهوة ، وأن الإيمان بالله هو الضمان الكامل لعصمة الإنسانية وبرها وصيانتها وحفظها ووحدتها وسلامتها ، وبعدها عن الأنانية والهوى والزور والبهتان ، إذ كلما اتجهت النفوس بصدق إلى خالقها عظم إخاؤها ، وقويت صلاتها واثقلت قلوبها ، وامتزجت أرواحها .

وكلما انخرقت عن الاتجاه إلى الله ذهبت في أودية الهوى الكذوب والأنانية المفرقة والأثرة الضالة .

ومن ثم فالمعنى الأصيل الذي تدور عليه أحكام الحج بل تقوم عليه أحكام الدين كله « وحدانية الله » فالحج هو البحر الآمن الطهور الذي تستقيم معه الحياة ، ويسلم به الأحياء هو لقلوبهم وأجسادهم وسعيهم وسلوكهم وأمنهم وسلامتهم لدينهم ودنياهم ، لعاجلهم وآجلهم .

هو لأفرادهم عصمة ، ولجماعتهم وقاية وأمن وسلام .
ومن أجل هذا تتحدث الآيات عن الأنعام وحاجة الناس إليها ، وإطعام البائس الفقير ، وتربط بين ما يطلب من وسائل البر والألفة ، وبين وحدانية الله وحسن القصد إليه لتجعل عمل البر متصلًا لا ينقطع وأسلوب الخير معصومًا عن هوى النفس ، وألفة الناس قائمة على حبهم وتقربهم إليه .

٣ - إن ما يقوم في البيت من عمل وما يقع حوله من شعائر لن ينال الله منه شيئًا . ولكن يناله التقوى منكم ! وهذه وحدها خير بيان لمهمة الحاج ورسالته ، وخير تحديد لعمله وغايته : « ولكن يناله التقوى منكم » . والتقوى كلمة جامعة للفضائل الإنسانية كلها ، وهي بما اشتملت عليه من تضمين الخوف من الله وابتغاء مرضاته تجعل العمل دائمًا في حراسة الخلق والضمير .

فلا تبذل اليد ليكذب اللسان أو ينحرف القلب ، ولا تنفق الأموال ليشتري الجاه ولكن يتم العطاء مع الوفاء ، ويقع البذل مع الصدق ، وتعظم حرمت الله لصان كرامة الناس ، وينتفي الشرك بالله لينتفي الظلم من دنيا الناس : ﴿ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] .

ومن هنا وجب أن نعلم أن حرمة البيت ليست لما فيه من طوب وأحجار ، بل بما يحفظ به من الذكرى وما يقترن به من معان ومثل ، وإلا فقد بين الرسول أن حرمة الدماء والأموال أمس من حرمة البيت الحرام .

وفي ظل هذا يمكننا أن ندرك أن عقيدة التوحيد سارية فيما تراه من زيارة الأماكن أو الوقوف عندها ، وأن التجرد لله الواحد أساس كل شيء في هذا الدين ، ولا شيء من الأماكن يقترن منه لذاته وإنما لتقدير المعاني والمثل التي اقترنت به ، ولا شيء من هذه الأماكن يضر أو ينفع ، وما هي إلا أماكن أمر الله أن يذكر عندها وأن يتجمع الناس من حولها : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيِّنَاتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيَّنَّاهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] .

بيت وضع للناس ليعبد الله ، وبلد حرام تحرم دماء الناس معه ، وهو يرمز إلى وحدة الاتجاه إلى الله وإلى المثل والمعاني التي تقترن به وتتردد من حوله لتظل الإنسانية مشدودة دائماً إلى معانيها متجهة إلى رمز وحدتها وتوحيدها وطهرها وصفائها .
ولذا كان الحج كغيره من الفرائض والعبادات هادفاً ذا غاية ، غايته طهر النفس وطمأنينة القلب بذكر الله .

غايته : تعارف الإنسانية وتبادل منافعها .

غايته : إشاعة الحب والرحمة بين عباد الله .

غايته : الأخوة الإنسانية البارة في ظل الإيمان الصادق اليقظ .

وبعد فما على الحاج وهو يدرك نعمة الله وفضله ورحمته وبره ما على الحاج وقد أدى الفريضة ووقف عند المشعر الحرام إلا أن يتوجه إلى زيارة من يبلغ رسالة ربه وأدى أمانته ، إلى النبي الكريم إلى الرحمة المهداة للعالمين ، إلى المدينة التي احتضنت الإسلام في هجرته وناصرته في محنته ، إلى موطن المعاني والمثل والذكريات العطرة والقيم الإنسانية الفاضلة ، إلى زيارة محمد ﷺ تقديرًا لفضله وعرفانًا لجميله وإعلانًا عن تقدير المثل التي دعا إليها وجاهد من أجلها : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ • فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .
 « حديث شريف »

(٦) الأخلاق والآداب :

أخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته .
 وعقيدته كما نعلم فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يعطي الأخلاق نفسها روح الثبات والقوة والشمول .
 وهي ليست نظريات فلسفية أو مصطلحات علمية تُحفظ ويُقاس عليها أو لا يقاس بل هي نور تحيا مع الوجدان كما تلتقي مع منطق الفكر وسماحة الفطرة .
 واتصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها روح التجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب فلا ينهى الإنسان عن خلق ويأتي مثله كإلا يتخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص واستغلال البسطاء والسذج ، وإنما تقوم الأخلاق في نفسه مقام المجاهد في ميدان الشرف والبسالة يدافع عن غاية ويرفع سيفه ويخفضه استجابة لمبدأ ويلقي بنفسه في أتون معركة يجود فيها بنفسه ليمنح الحياة من وراءه ظافراً بما عند الله .
 وكذلك الأخلاق قد تضطرك أن تبذل كل مرتخص وغال ولا تستطيع أن تخرج على قانونها أو تخالف حكمها .

وهي ليست نوعاً من الدعة والسكون والتبتل الكذوب ، وإنما هي فضائل النفس الإنسانية الكاملة من شجاعة ، وكرم وير ، وإيثار وحب ، وعدل وحق ، وإحسان ورحمة إلخ ..

وهي ترتبط والحكمة أيما ارتباط : أي وضع كل شيء في موضعه ، فالشجاعة على الضعيف جبن وظلم ، ومن غير قانون تسلط وبغي ولغير غاية تهور وحمق . فكل خلق في الإسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد . وليس للأرزاق إلا غاية واحدة : « الإيمان بالله واليوم الآخر » وهذه الغاية هي التي تحدد الباعث على العمل لتتجه به في طريق مستقيم .

وإذا كانت هذه الرسالة الخاتمة قد جمعت أصل الدين كله وشملت نبوات الأنبياء جميعاً .

وكانت مهمة الرسول ﷺ تبليغ هذا الدين الكامل وقد لخص مهمته في قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » كان الدين منهجاً للأخلاق وكانت الأخلاق هي الدين بكل ما فيه ، وليست خارجه عنه أو زائدة عليه في قليل أو كثير . فإذا كانت الأخلاق في المناهج العلمية الحديثة قد أصبحت لها فلسفتها الخاصة وأصبحت علماً ذا شأن له قواعده وبواعثه وضوابطه ونتائجه فإن الإسلام إذا سُئِلَ عن منهجه في الأخلاق أجاب أنه كتاب الله ، المتمثل في سلوك نبيه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾

[سورة الأحزاب : ٢١] .

ولقد سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن . قلت : إن أخلاق الإسلام مستمدة من عقيدته ، وتلك تمنحه روح الثبات والقوة والشمول كما تمنحه روح التجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب . وإذا نحن تأملنا بعض الصفات في ضوء ما قدمنا ألفينا صدق ما نقول : فالشجاعة مثلاً وهي فضيلة من فضائل النفس الإنسانية - نجدها تستمد قوتها وامتدادها من عقيدة الإسلام - وما نراه من بطولات نادرة وأمثلة فريدة في الإقبال على الله والتجرد له مبعثها الإيمان بالله وحده .

وقد رأيت مما تقدم من أمثلة في شخصية الرسول ﷺ أن الشجاعة تهدف

إلى غاية شريفة يتحقق بها العدل بين الناس ، ويستقيم معها ميزان الحق وتؤمن مصالح الناس .

وهي بعد لا تعرف معنى التردد بعد عقد النية والعزم : « ما كان لنبى لبس لامة الحرب أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

كما لا تعرف الفرار في ميدان الشرف إذا حمى الوطيس وهي تنبع من الإيمان بالله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأُدْبَارَ • وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ١٥ ، ١٦] .

العقيدة تمنحها روح الثبات والإقدام في موضعه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٥] .

وهكذا نرى الصفة الواحدة تبلغ من الرسوخ والقوة والثبات وشرف القصد ما يجعلها في نفس المؤمن أعلى مرتبة وأبعد أثرًا وأشرف غاية منها في نفس غيره .
وإذا كان الإيمان هو الذي يحكم اتجاهاتها ويحدد هدفها كانت خادمة للمثل العليا عاملة لخير الإنسانية جميعًا .

وأنت إذا تأملت الكرم أيضًا في هذا الدين ألفت الرسول ﷺ وهو أسوة الخلق أجود من الريح المرسله يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وألفت المسلمين معه يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ورأيت من صحابته من ينفق ماله وهو يعلن ثقته في الله وغناه بما عنده ، ماذا أبقيت لأولادك من بعدك ؟

فيقول : أبقيت لهم الله ورسوله !

الصفة هنا ترتبط بالعقيدة ، فتأخذ طابع الثبات والرسوخ والشمول وكيف يضمن في موطن الجود من يثق أن الله هو الغني الحميد ؟

وهكذا نجد هذه الصفة أيضًا أبعد أثرًا في نفس المؤمن من غيره ، وهي ترتبط بالإيمان بالله فتصبح عاملة لخير الإنسانية جميعًا .

أخلاق هذا الدين تتبع من عقائده . وقد رأيت فيما مضى مصداق ذلك ، كما رأيت أن العبادات التي شرعها الإسلام بمثابة الدربة العملية لتمكين أسباب الخلق وإشاعة روح الحب والرحمة بين الجماعة الإنسانية ، وليست العقيدة في ذاتها والعبادات في أصلها إلا أسسًا مكيئة لإشادة البنيان الخلقى الذي حدد الرسول رسالته به : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

! ولا يوجد سياج تصان معه الحقوق ، حقوق الأفراد والجماعات إلا سياج الأخلاق .

ولقد أنصف أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هـم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفي ضوء ما تقدم يمكنك أن تعرف مكانة الأخلاق في الإسلام ، وكفاك أن تعلم أن الشهادة التي أهلت محمدا ﷺ لدعوة الإنسانية جميعًا هي : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الفم : ٤] .

ولقد عرفت عقائد الإسلام وفرائضه من العبادات .

وهنا نود أن نبين أن ذلك كله لا يفيد صاحبه إذا لم ينتج خلقًا طيبًا وسلوكًا نظيفًا :

قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها هي من أهل النار .

أرأيت كيف أودى سوء الخلق بقيام الليل وصيام النهار ؟

بل كيف ذهبت المرأة بصيامها وقيامها - وقد آذت جيرانها - إلى النار ؟

من هذا وغيره تدرك قيمة الأخلاق وأن الإسلام يعدها عنوانا للتدين الصحيح ودلالة على الإيمان الصادق بل إن ميزان الإنسان في الخير لا يقدر إلا بها .

وأنت تسمع مما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أتدرون

من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع !

قال : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ! .

إن الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من فرائض الإسلام كلها تبقى إذا توجت بحسن الخلق ، فهو دليل أصالتها في النفس وصلورها عن يقين وخشية :
عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة - فأعادها مرتين أو ثلاثاً - قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أحسنكم أخلاقاً » (١) .

وقد سئل رسول الله ﷺ : أي المؤمنين أكمل إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » (٢) .

وهنا يرد سؤال له خطره وله آثاره المترتبة عليه .

هل يمكن الاستغناء عن الصلاة والصيام مثلاً ما دام الغرض وهو حسن الخلق يتحقق بدونهما ؟

وأود قبل أن أقطع بالجواب أن أذكر أن فرائض الإسلام ومعاملاته وآدابه وسلوكه كلها تنبع من الأصل الخالد الذي هو محور الدين كله الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأن هذا الدين دين الحياة كما قد علمت يتفاعل معها ويحتضن كل شؤونها وقضاياها .

والحياة كما تعلمها في الواقع قائمة على صلة الخالق بالخلق خلقاً وإيجاداً

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الطبراني .

ورعاية وحفظًا ، كما أنها قائمة بالضرورة على صلوات العباد بعضهم مع بعض ، فمن حق الإله الخالق على المخلوق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وأن يشكروا نعمه ولا يجحدوا فضله ، وأثر ذلك يعود عليهم في أفرادهم وجماعاتهم ، فإذا أمر بالإنفاق في سبيل الله فمن ذا الذي يفيد من هذا الإنفاق ؟

وإذا أنتج هذا الإنفاق - وهو يرتبط بمعرفة الله - إشاعة البر بين العباد فعلى من تعود الفائدة ؟

إن الإسلام حين طالب أن يكون العمل كله خالصًا لوجه الله ، وطالب أن تقام فرائضه وعباداته ابتغاء وجه الله . إنما قصد من هذا تحقيق غرضين أساسيين : أولهما : اتصال العبد بربه وتقربه إليه بما أمر به ، ولاشك أن العبد أحوج ما يكون إلى قيام هذه الصلة وهو يرى كل شيء في قبضة الله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مَنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة فاطر : ٤١] .

كل شيء مسخر بقدرته قائم بحكمته الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والأنعام والرياح والسحاب والليل والنهار وما خلق الله من شيء والإنسان يشهد كل هذا ويرى آيات الله ماثلة أمامه تبصوه وتذكره بقدرته الله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِلُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

[سورة الذالجات : ٤٧ - ٥٠] .

العبد في حاجة إلى رضا الله - وإن هو استقام أو حاد فلنفسه - وهو غير خاف عليه وليس بمعجز في الأرض ولا في السماء : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ آعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٠] ،

﴿ وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[سورة البقرة : ١١٠] .

فمن مصلحة العباد إذا أن يحسنوا صلتهم بالله وقانونه نافذ عليهم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [سورة الحج : ٦٦] . وأن يدركوا فضله ، ويشكروا آلاءه ونعمه . وهذا ما أراد أن يسترعي موسى نظر فرعون إليه حين سأله عن ربه : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ . قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ ثِبَاتٍ شَتَّى ﴾ . كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴾ . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [سورة طه : ٤٩ - ٥٥] .

وأظنك تعلم كما أعلم أن فرعون غفل عن هذه الآيات حتى أدركه الغرق فقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة يونس : ٩٠] .

إنه إيمان المكروه وقد فات أوانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٨] .

العبد يحيا في نعم الله ويرى آياته في نفسه ومن حوله !

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهو كذلك عائد إليه ومحاسب بين يديه .

ولاشك أن أداء الفرائض والعبادات إعلان عن طاعة العبد لربه وخضوعه لخالقه وهو في الوقت ذاته أقوم سبيل لتحقيق البر بين الخلق وتمكين الأخلاق الكريمة

في النفس وفي مجال السلوك والسعي - وذلك هو الغرض الثاني - .

ثانيهما : تطهير النفس وتحسين صلة العباد بعضهم مع بعض . وأود أن تتأمل جيداً هذا التماسك الفطري العجيب بين الصلة بالخالق والبر بالخلق .

؛ فإذا الناس طرحوا أوامر الله وأرادوا أن يقصروا صلّتهم على العباد فحسب زاعمين أنهم يحلون بمكارم الأخلاق التي تكفيهم في حسن الصلة بالناس فقد أهلكوا أنفسهم وأساءوا إلى الناس :

وبيان ذلك أن الأمر قد يشبهه على الناس دماثة خلق عند إنسان لا يؤمن بالله ولا يؤدي فرائضه فيظنون أن هذا قد أحرز الفضائل دون حاجة إلى صوم أو صلاة ولا يعنون النظر في معرفة الأسباب والنتائج والآثار الناشئة عن ذلك في مجالات حياتهم :

تاجر يعلم أن الصدق سبيل الربح وهو محمود يقبل الناس عليه فيصدق ، ويعلم أن الكذب سبيل الإفلاس وهو مذموم ينصرف الناس عنه فلا يكذب .

ما غاية الصدق عنده ؟

وما غاية تجنب الكذب ؟

المنفعة لا غير .. منفعة الجسد ، متعة الحياة .

تأمل هذه الصفة نفسها مع الإسلام .

ما غاية الصدق عند المؤمن الذي يؤمن بالله ؟ أن يرضي ربه ولو أدى الصدق إلى زوال منفعة أو استجلاب مضرة .

ويتجنب الكذب لأن الكذب يغضب الله ولو جر عليه ربحاً وافراً ومالاً كثيراً : فالغاية هنا تثبت الفضيلة وتوسع في تطبيقها ولا تربطها بمنفعة قد تزول ، هتزل الصفة معها . هي عند هؤلاء كنبت اجتث من فوق الأرض ما له من قرار . وعند أولئك : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۗ تُؤْتِي

أُكْلَهَا كُلُّ حِمِيٍّ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

نحن لا ننكر الصفات التي ركزت في طبائع الناس والتي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٨] ، فهي أسلحة زود بها الإنسان أي إنسان ليقوى على معركة الحياة ولقد جاء الإسلام إلى صفات النفس ليعمق جذورها ويوجهها وجهة الخير العام ، وبجرد هذا السلاح لخدمة الخير والبر والحق : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ نَحَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٩ ، ١٠] .

وهذا الجهد الذي نيط بالإنسان في تزكية النفس وحمايتها من الرجس قد أُعِين عليه من قبل الحق تبارك وتعالى بشرائع الإسلام وفرائضه : ﴿ تَحْذَرُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [سورة التوبة : ١٠٣] .

ولكن الأمر قد يشبهه عليك كما قلت .

فترى إنسانا لا يؤمن بالله ولا يلتزم أوامره ويتسم بصفات نفسية فتظن أن هذا وحده يكفي في تحقيق الأمن والسلام والرحمة ولا تفرق بين الصفات الأساسية التي زود الإنسان بها ليقوى على شئون الكد والعمل وتحصيل القوت والرزاق ، وبين الأخلاق التي طالب الإسلام بتحقيقها على صورة معينة لتسلم الحياة حقا ويتحقق السلام صدقا ويشيع البر والعدل والرحمة .

قد تكون الصفة التي يطلبها الإسلام هي الصفة الأساسية التي يتسم بها كل إنسان مؤمنا كان أو كافرا .

ولكنك قد عرفت الفرق بين غاية الصفة في الحاليين مع أنها صفة واحدة تغير أثرها بسبب الدافع والباعث .

وفرقت آخره هو أن الإسلام قد وضع للأخلاق أسسا ثابتة ومحورا يدور عليه لتستديم الحركة ويبقى التفاعل بين الخلق متمسا بالألفة والتعاون متجردا من الغرض والهوى والتسلط والبغي ، هذا المحور كما عرفت : « معرفة الله وخشيته » .

وفي نظري أن الذين يعتقدونها دنيا فحسب لا يمكن أن تستقيم بهم دنيا أو تستقر معهم أخلاق :

وذلك أن نظرتهم إلى الدنيا فحسب تقطع صلتهم عن الإيمان بالله الذي هو رأس الفضائل كلها ، وتجعلهم يحرصون على إحراز ما يمكن إحرازه من أمر الدنيا التي ليس وراءها في تقديرهم شيء قد يلبسون ثياب الطهر أو يسدلون على أنفسهم لون العفاف لكنه ثوب على كل حال يخلعونها إذا لم يلائم طبيعة الجو ، ويلبسون غيره مما يتناسب هو والأجواء التي يعيشون فيها أو ينتفعون منها .

فلا تقل عن إنسان يراها دنيا فحسب أن أخلاقه تسمى أخلاقا اللهم إلا في مذهب المنفعة الذي يحدد الباعث بها ويقصر شئون الناس عليها .

وهو مذهب إن حدد الباعث عند بعض الناس لكنه قاصر عن أن يقيم لهم منهجاً خلقياً تستقيم به أحوالهم أو يفتح أمامهم باباً للتدرج إلى الكمال الذي هو صميم رسالتهم في الحياة .

لكن الإسلام وهو يجعل للأخلاق أسساً ثابتة ومحوراً تدور عليه وغاية أعلى تتجه إليها يفتح أمام الإنسانية باب الترقى إلى الكمال ، وهي كلما ارتقت اتسع أمامها مجال العمل للخير وانفتح سبيله .

وهو بهذا يتيح للخصائص الإنسانية أن تنطلق في ميدان فسيح تتجه إلى أرفع غاية وتهدف إلى أكمل غرض . وهذه تقصر دونها المذاهب الأخلاقية على الإطلاق . وباب الترقى إلى مرتبة الكمال لا يقف عند حدود المنفعة المادية وإن لم يتناف معها اللهم إلا إن وقف الإنسان عندها ولم يتجاوزها إلى غيرها من الحقوق والواجبات وعدها غاية له يسخر من أجلها قواه الحسية والمعنوية ويتذرع من أجلها بالفضيلة والأخلاق .

الإسلام لا يهمل المنفعة المادية وهو يفي بحق الجسد في إطار ما نسميه بحسن الأخلاق . والحقوق في الإسلام تتنوع حتى تشمل العناية بالمادة والروح والتقرب للخالق والبر بالخلق : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه » .

ومن هذا تستطيع أن تدرك خطأ أولئك الذين ظنوا مهمة الدين قاصرة على

تنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق وأن أمره ينحصر في مادة العبادة فحسب .
 فهذا إن ضح في دين من الأديان فإنه لا يصح أبدًا في دين الإسلام لأن هذا الدين لم يدع جانبًا من جوانب النشاط الإنساني الفردي والجماعي إلا رسم له منهجًا كاملاً للسعي والسلوك ، ولم يكتف بتنظيم العلاقة بين الناس بعضهم وبعض بل تحدث - كما عرضنا - عن علاقتهم بالكون في آيات تدعو إلى التأمل والنظر والمنفعة واليقين .

قلت : إن باب الترقى إلى الكمال لا يقف عند حدود المنفعة المادية وإن أوفى بحقها في حدود ما يسمى بحسن الأخلاق .

كما أنه لا يحدد معايير للفضيلة تقاس بها كما تقاس المسافات أو تحدد أضلاع المثلثات . ليست وسطا بين رذيلتين على الإطلاق كما يقول أصحاب المدرسة اليونانية القديمة فإذا أخذنا فضيلة الكرم مثلا وهو من مكارم الأخلاق فماذا نحكم على إنسان أنفق ماله كله في سبيل الخير والواجب هل يعدّ إسرافا خرج به صاحبه عن حدود الوسط فدخل به إلى منطقة الرذيلة وهي الإسراف ، أو نعدّ عمله هذا من محامد الشيم ومكارم الأخلاق ؟

إنه ليس من الإنصاف في شيء أن يسوق بعض المفتونين بهذا المذهب بعض آيات القرآن التي تطلب الاعتدال في شئون النفس ليجعلوا من القرآن نفسه دليلاً على صحة هذا المذهب ، وأن الإسلام العظيم يربط المسلم بالواجب فحسب .
 قد يقتضيك الواجب أن تنفق مالك كله وأن تجود بنفسك .

وأنت تبصر الواجب في الإسلام في ضوء عقائده وتعاليمه .
 والغاية العليا في الإسلام تصحح دائماً النية والقصد كما تصحح الوسيلة والسعي .

وإذا قيل : إن الخير يجب أن يقدر لذاته دون نظر إلى ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، والدين الإسلامي كغيره من الأديان يرتب على فعل الواجب جزاء ، وهو ما يتنافى مع تقدير الواجب لذاته ، إذ قد يكون النظر إلى الجزاء المترتب عليه لا للواجب في ذاته .

نقول : إن تقدير الخير في الإسلام يزيد على ما زعمه أصحاب هذا المذهب ،
 إنه يتسم بسمة الربانية التي تجعل صعود الإنسان في آفاق الكمال لا يمكن أن يحد
 أو يقف عند حد ، لأن فاعل الخير يسعى إلى إرضاء الله وهو الكمال المطلق :
 ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سورة الشورى : ١١] .

ولا يضر القضية في شيء أن تسمع في الإسلام عن الجزاء المترتب على
 الأعمال ، فلكن صح أن يكون باعثاً على العمل عند بعض الناس - لكن منشأه
 الإيمان بالله والثقة فيه - إذ الجزاء الحقيقي الذي رتبته الإسلام على العمل هو الجزاء
 الأخروي .

وهذا مبني أولاً وآخرًا على الثقة في الله . علمًا بأن المؤمن نجياً دائماً بين
 الخوف والرجاء مما يجعل عمله متوجهاً أصلاً وقصدًا إلى الله وحده .

فالذي يدور في نفسه أن الله يرضى ، ويشعر هو في قرارة نفسه براحة ومنتعة
 أن وفقه الله لخير صنعه أو بر قدمه .

وإذن فالجزاء الذي تحدث عنه الإسلام ليس جزءاً تناله ممن صنعت إليه
 معروفًا في الدنيا . إنما هو جزء ينتهي بتجريد الباعث من كل غرض أو هوى ، ينتهي
 إلى نقطة التجرد إذ يقصد رضا الله حتى في حالة التطلع إلى جنة الله إذ كيف
 يطمع في جنة الله أو يعتقد حتى في وجودها ما لم يثق أولاً في الله الذي أخبر عنها
 ووعد بها على لسان رسله .

فهو إنما يطلبها نتيجة تصديقه بوجودها وإيمانه بخالقها .

وما لنا ننكر أن ننال من الله فيضا من نعيم الآخرة ماديا كان أو معنويا ونعد
 ذلك نقصًا في الخلق الذي ينظر إلى الخير في ذاته دون ترقب لثواب أو عقاب .

مع أن هذا الفيض لم ينقطع قط ولم نعد في يوم ما غير متخلق هذا الذي
 يقف بين يدي الله يطلب طعامه وسد حاجته .

الطلب من الله في حقيقته تجرد ، والرغبة فيما عنده في ذاتها تنزه ، والنتيجة في
 كليهما تجميع لأمر الخلق وإشاعة الحب وتشديد لدعائم الخلق .

والإسلام كما قلت : جعل غاية المسلم من عمله وسعيه وحتى مأكله ومشربه ولذته الحسية والمعنوية وجه الله ، فهو لهذا جعل النية بعيدة عن الرياء والسبحة والغرض ، ويرتب الجزاء في الآخرة على هذا الأساس .
وأنت تسمع من فم الرسول الكريم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وتسمع منه حين يسأل عن الرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل حمية : أي ذلك في سبيل الله ؟

فيقول : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .
بل تسمع القرآن وهو كتاب الله الخالد يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

• [سورة النساء : ١١٦] •

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] •

أي شيء هذا الأجر ؟ وما حدوده و ما تحديده ؟ كل ذلك متروك لله وحده .
المؤمن يحسن العمل تقرباً إليه وكفى ، ويتنزه في عمله أن يشرك وكفى .

ومن السخف أن يقال عن الجزاء الأخروي الذي تحدث عنه الإسلام أنه جزاء مادي محسوس فحسب ، فذاك ما يناقض بدهة الفطرة التي تحدث عنها الإسلام
وعد نفسه دينها :

• فالإنسان في الدنيا ليس جسداً فحسب حتى ينتقل إلى الله منعماً بجسده
فحسب :

إن الأديان جميعاً تنظر إلى النعيم الإلهي كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية وليس في المثل الأعلى في الحياة - في عقيدة المسلم - ما يجعله على رغم المضللين من

أعداء الإسلام جسداً محضاً في أخلاقه وآدابه أو يجور على الجانب الأخلاقي فيه .
ومن أرى عليه دينه أن يكون في الأرض جسداً محضاً فمن السخف أن يقال
أنه يرضى لنفسه أن يكون جسداً محضاً في جوار الله الذي بلغ به الإسلام غاية
ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه . وهذا قسطاس لا يخطيء في تقويم كل خلق
حسن يستحبه الدين في المسلم إنه مأمور ألا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية ،
ولكنه مأمور في الوقت نفسه أن ينظر إلى صفات الله الحسنى كما تجلت في أسمائه
التي وردت في القرآن الكريم فهي قبلته التي يهتدي بها في كل مكارم الأخلاق
لا يكلف أن يدرك منها شأواً الكمال الإلهي ، ولكنه يكلف منها ما في وسعه كأنها
قطب السماء الذي يهتدي به ملاح البحر وهو أنه في فلكه الرفيع بعيد المنال .

والأخلاق التي يهتدي إليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وافية بخير
ما يتحراه الإنسان في مراتب الكمال المطلوبة لجمالها مع عموم نفعها في حياة الفرد
والجماعة . ومنها : العزة والقدرة ، والكرم والإحسان ، والرحمة والود ، والصبر ،
والعفو ، والعدل ، والصدق والحكمة ، والرشد ، والحفاظ ، والحلم ، واللطف ،
والولاء ، والسلام والجمال كلها كمال لأنه لا يقاس إلا بمقياس الكمال (١) .

بقي هناك أمر نود أن نشير إليه :

وهو أن بيان الخير والشر أو تحديد معالم الفضيلة لا يكفي في هذا المجال
ما لم يكن من ورائه ضمير وقلب ، والمذاهب الخلقية التي تتحدث عن الخير لذاته
أو تبين معالم الفضيلة دون أن تربطها بأصل ثابت إنما تفقد روح الحياة وسبب
البقاء ، ولا يمكن تحقيق خلق وإيقاظ ضمير بمجرد مدح الفضيلة أو الرذيلة أو التنفير
منهما ، بل لابد كما قلت من ربطهما بأسباب الحياة أي صدورهما عن الإيمان بالله في
الإقبال على الفضيلة والبعد عن الرذيلة .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى التساؤل الذي سقناه أولاً ونورده على هذه الصورة

(١) حقائق الإسلام : للأستاذ العقاد .

لنبيين أثر ما يترتب عليه :

هل يمكن الإنسان أن يتسم بالأخلاق التي يصلح بها أمر الناس ، وهو لا يؤدي الفرائض الإسلامية التي أوجبها الله عليه .

وأود أن أقرر أولاً :

أن الإسلام ينكر صورتين هما :

رجل يتسم بالأخلاق وهو لا يؤدي الفرائض التي أوجبها الإسلام عليه ، ورجل يؤدي فرائض الله ولا يتسم بطهر الأخلاق .

أما إن الإسلام ينكر الصورة الأولى فلأن هذه الأخلاق لا يمكن أن يصلح بها أمر الناس ، ولا يمكن أن تمتد معها الألفة بينهم وهي مقطوعة الصلة بالله .

وأما إنه ينكر الصورة الأخرى فلأن هذه الفرائض أيضاً لا تتبع عن معرفة لله صادقة فهي أقرب إلى الرياء منها إلى الأخلاق .

وأنت تسمع من فم رسول الله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » !

أما وقد عرفت أن الإسلام ينكر الصورتين معاً فتعال بنا نفصل القول فيهما :

رجل يتسم بالأخلاق وهو لا يؤدي الفرائض التي أوجبها عليه ربه هل يمكن لدنيا الناس أن تسعد بمثل هذا أو تطمئن إليه ؟

لكل إنسان في الحياة غاية فما غاية هذا ؟

قد يقال : إنه يؤمن بوجود الله ويخشاه ولكنه لا يؤدي الفرائض ، ويتسم بالأخلاق النابعة من إيمانه بالله .

نقول : الذي يخشى شيئاً أو يحبه لا يخالف أمره ولو خالفه مرة أو مرات عاد إليه يلتمس العفو والمعذرة ، أما الاستدامة على الترك والمعصية فهي برهان عدم الخشية منه أو الرجاء فيه وإذن فما غاية الأخلاق الطيبة عنده ؟

قد يقال : إن الشيء الطيب يحب لذاته فلم لا يكون تقدير هؤلاء للخير مثلاً

وحبهم له لذاته دون النظر إلى أي شيء آخر ؟

وهذا يعد في مذهب الأخلاقيين عين الخلق وحقيقته .

حب الخير لذاته ، وتقديره لذاته .

نقول : أروني كم من الناس على هذه الحال ؟

قد يقال : يمكن إيجاد هذا النوع دون حاجة إلى فرائض الدين .

ونحن نقول : لا يمكن إيجاده بصورة صادقة إلا بفرائض الدين .

وقد عرفت أن صفات الله وهي الكمال المطلق يتخذها المؤمن غاية له في الأخذ بأسباب الكمال والرفعة .

فهل يمكن حب العدل مثلا لذاته أن يكون عدله أوسع مدى وأبعد أثرا وأوفر

كامالا من العدل الذي يحبه المسلم ويتخذه غاية له ؟

إذن فتقدير الشيء لذاته يتحقق في الإسلام بزيادة تيسير الأسباب التي تجعل

التقدير للشيء يقوى ويتفاعل في حياة الناس وأحوالهم الخاصة والعامة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هو الكمال المطلق فهل يمكن أي إنسان أن يرقى

في ميدان الفضائل وأن يسير في طريق الكمال دون أن يتخذ لذلك سببا من فرائض

الإسلام وشرائعه ؟

إن فرائض الإسلام معراج رباني للصعود إلى أفق الكمال ، وتأمين قدسي ضد

المؤثرات المعوقة والأهواء الحاجبة .

إنها مناعة ضد التقلبات واختلاف الأجواء تحفظ على النفس روح الاستقامة

والاعتدال ، والمناعة شيء يقوم في النفس يحفظها ويصونها من الأجواء العابثة والتيارات

العفنة .

ولا يصان السلوك الإنساني إلا بهذا الزاد الرباني الذي يطوع النفس للخير

ويربها على الطهر ويمدها بالزاد المتصل للحياتين معاً حياة السعي وحياة الجزاء .

وما أخال الذين يتحدثون عن الذاتيات المجردة فيقولون : إنهم يقدرون الخير

لذاته والفضيلة لذاتها .

ما أخال هذه المذاهب وما دونها - وهذه أمثلها - إلا فلسفة فكر أقرب إلى النظريات العقلية منها إلى المنهج الواقعي أو السلوك العملي .

وإلا فماذا أغنت هذه المذاهب عن أصحابها ؟ وماذا صنعت لنا في واقع الحياة من نهضة أو حضارة أو تغيير أي تغيير لسلوك الإنسانية المنحرف ؟ إن الإنسانية كلها من جراء الطغيان المادي تحيا في جحيم مستعر ، وتقلب على بركان من الحمم يفقدها لذة الأمن ويسلبها نعمة الاستقرار ولم تصنها بشيء فلسفة الأخلاق أو نظريات الأخلاقيين .

إننا نطلب منهجًا للسلوك العملي يتفاعل مع الحياة تفاعل الماء والغذاء في جسم الكائن الحي ، أما أن يقال تنسم عبير المسك فإنه يغنيك عن الطعام والشراب ، وأمسك عنهما مكتفيًا بما يأتيك من هذا العبير ، فتق أن الإنسان مشرف على الهلاك لا محالة إذا لم تصله مادة الحياة ، ولن يغنيه أن يصع بجواره كَمَا من العطر أو قنطارًا من المسك !

إن الإسلام بفرائضه العملية المتكررة يقدم مادة الحياة ، يقدم الزاد اليومي المتصل الذي يتفاعل مع السلوك تفاعل فطرة لا تكلف فيها ولا عسر معها . إننا لا نقنع في قضية الأخلاق بالترف العقلي في وضع المذاهب والنظريات ، إنما نقنع إذ نرى أسباب الخير والحق والحب والجمال تتحقق في حياة الناس ، ولا يتم ذلك أبدًا وقد جحد حق الخالق وعصى أمره .

وإذا جحد حق الخالق - وكل شيء في الوجود صنعته - فماذا تنتظر بعد ذلك من وفاء للعباد أو تقدير لشئونهم أو رعاية لحقوقهم ؟ إذا جحد حقه وخالف الناس أمره تنوعت البواعث وتعددت السبل فذهب الناس في أودية شتى .

نعم تنوع البواعث والدوافع ولا يمكن تحديدها بعد ذلك بمنفعة أو لذة أو قوة أو ضعف أو حب للخير في ذاته أو إظهار حُبِّه لالتقاط حَبِّ تنوع البواعث

فيفترق أمر الناس وهذا ما وقع حين انصرف الناس عن الغاية المجمعمة وارتكبنوا إلى مذاهب من صنع البشر ذهبت بهم في أودية الفرقة والتنابد .

أروني مذهباً أخلاقياً اتفق مع الآخر أو استطاع أن يخفف من ويلات الشر ويتجه بالناس إلى طريق الخير ، والإنسانية في كل يوم تقترب من الهاوية وتقف على حافتها !

إن الاعتراف بالله ليس دعوة أو فلسفة فكر ، بل هو حقيقة في القلب يصدقها العمل ورشد في الفكر يعصمه اليقين .

ومن ينشد إنساناً للحياة لا بد أن يتأمل مكانة الأخلاق عنده .

وسبيل الأخلاق إنما هو الدربة العملية على أحكام الضوابط النفسية التي تبقى عليه إنساناً يرى وجوده فيمن حوله وسعادته من سعادتهم .

إنساناً محباً للخير والبر مؤمناً بالحق مدركاً للحقيقة وجوده وغايته .

وفرائض الإسلام خير ميدان للدربة العملية على الطهر الدائم ، وإقامة ضوابط نفسية تصان معها الحقوق .

وهي دربة على التحمل والصبر والإمساك عن الإثم وقول الزور ، دربة على القناعة وحب الخير للناس ، ثم إنها سبيل عملي للامتزاج بين الناس في محراب الصلاة وبين شعوب الأرض قاطبة في واد غير ذي زرع يخرج الناس منه من شهوات المتع الزائفة إلى الوحدة والتجرد والصدق والرحمة .

وقد رأينا مصداق ذلك في حديثنا عن هذه الفرائض ، وهي ترتبط بالعقيدة التي هي محور عبادات الإسلام ومعاملاته ومصدر آدابه وسلوكه .

قلت : إن الإسلام ينكر أن يكون المسلم متمسماً بالأخلاق ولا يقيم الفرائض التي أمر الإسلام بها لأنه ينكر أن يرى إنساناً بلا غاية أو يراه بغاية منحرفة وقد رأيت أن الإنسان إذا لم يقصد وجه الله في عمله فلا بد أن يتنوع الباعث ويتعدد الغرض ، ثم يتشكل الإنسان على حسب ما يميل عليه الباعث ويدعوه الغرض .

وذاك لا يمكن أبداً أن يتم عليه تجميع الناس أو يقع عليه تعاونهم أو تتوافر به سعادتهم .

والواقع العملي للحياة هو أقوم دليل .

وأما أن الإسلام ينكر أن يرى إنسانا يؤدي الفرائض ولا يتسم بالأخلاق فلأن ذاك في نظري تاجر في سوق المنافع وضع على محل تجارته إعلانا ضخماً عن الصدق والأمانة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفي مخبأته معمل للغش والتدليس إلا أنه غش يأخذ صورة الورع وتدليس يلبس ثوب الصدق !

وهذا ما دعا عمر أن يسأل الذي جاء بين يديه يزكي إنسانا في قضية ما : هل كنت جاراً له حتى تعرف أمره ؟ قال : لا .

قال عمر : هل سافرت معه سفراً ظهر لك فيه صبره من جزعه ؟ قال : لا .

قال : هل عاملته بالدينار والدرهم حتى يظهر لك حاله من حرامه ؟ قال : لا .

قال : هل رأيته يجلس في المسجد يصلي ويتمم ؟ قال : نعم .

قال : اذهب فلست تعرفه .

وقد سمعت حكم رسول الله ﷺ في المرأة التي صامت ثهاهما ، وقامت ليلها ، ولكنها آذت جيرانها بلسانها .

واسمعه صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول فيما يرويه عن ربه :

« إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطبل على خلقي ، ولم يبت مصراً على معصيتي ، وقطع النهار في ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : من يا رسول الله ؟

قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » (١) .

إن الإسلام حياة متكاملة ووحدة لا تقبل التجزئة :

﴿ أَفْتُوْمُنُوْنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٥] .

فلا يمكن في دين الله أن تقبل صلاة يقوم بجوارها الكذب .

أو زكاة يصاحبها من أو أذى أو رياء وفخر .

كذلك إمساك عن طعام وشراب لا يقترن بالإمساك عن الإثم وقول الزور كما

لا يقبل الدين حجا يقترن بإثم أو فسوق ففي الحديث الشريف : « إن الله طيب

لا يقبل إلا طيبا » والله تعالى يقول : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ

التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [سورة الحج : ٣٧] .

إن كل شيء في كون الله قد وضع بنسب مخصوصة لكي يؤدي الغرض

الذي خلق له وسيق من أجله بحيث لو اضطربت هذه النسب بطلت الفائدة وانعدم

النفع وخرج الشيء عن حقيقته ، وربما تحول إلى شيء ضار بالحياة والأحياء .

فالماء والهواء مثلا يقومان على نسب معينة تجمع بينها الحكمة العالية التي

تؤلف وتجعل من أمرهما نفعا للخلق وزادا للحياة .

فكيف تنكر أن يضع الخالق للإنسان هذه النسب من الفرائض التي ينتج

عنها استقامة الحياة ومنفعة الأحياء وخالق الماء هو رب الدين كلاهما فيض من الرحمن

الرحيم : ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة نطه : ٥٠] .

كيف بنا ووقائع العلم تكشف لنا عن قيام الحكمة في كل ما صنع الله ؟

كيف بنا لا نتقبل ما وضع من غذاء متكامل لإنسانية الإنسان مع أن حياتنا كلها مدينة لحكمته مرتبطة بتقديره .

وهل يمكننا أن ندعي أن في إمكاننا أن نغير في فطرة الحياة لنجعلها على نسق آخر ، ونحن لا نخلق ذبابا أو نرد ما سلب ؟

إذا كان في إمكاننا أن نضع مذهبا يتلاءم مع فطرة الحياة وسعادة الأحياء أو نغير في أوامر الله فنتقبل منها ما نتقبل ونرد ما نرد ، نقيم فرضا ونبطل فرائض فلنغير في نسب الهواء والماء ونرى نتائج الانتفاع بهما ؟

إن كل شيء وضع بحكمة فلماذا نتقبل الحكمة في أمور المادة ولا نتقبلها في شئون النفس والأخلاق ؟

﴿ آتَى كِتَابًا أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١-٤] .

ولقد قلت : إن الأخلاق الإسلامية من العمق والشمول والإحاطة وهي - تنبع من الإيمان بالله - بحيث تتسع لبر الإنسانية جميعا .

فأنت ترى الصدق صدقا مع القريب والبعيد : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

والأمانة شاملة لشئون الخلق جميعا : ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي الْوَيْدَ أَمَانَتَهُ وَلْيَسْتَقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٣] .

ألا إن ديننا تسمع من آياته : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٦] ،
هو جدير أن يكون رحمة الله للعالمين .

وكل مذهب دونه مهما كانت قيمته عاجز عن الوفاء بسعادة الفرد فضلا عن

سعادة الخلق أجمعين ، عاجز عن أن يسوس طباع الفرد أو يهذب غرائزه .

ولم أر شيئاً أحاط بجوانب النفس ودخل إلى مكنونها وأمدّها بفيض من الطهر مثل ما فعل الإسلام : لم يقدم للناس منهجاً نظرياً جافاً تقدم معه استجابة القلب والوجدان ، وإنما قدم زحراً فطرياً منطلقاً . يتفاعل مع النفس كما يتفاعل مد الشمس مع حياة الزرع والتمر والكائن الحي في فطرة سمحة وطبيعة لينة هادية .

وترى من أثر هذا التفاعل نماء ونضجاً وثماراً .

والدين في حياة الناس كالشمس في طبيعة الحياة يمكن التنكر له بالقول ولا يمكن نكرانه بالفطرة .

وإذا خفي على الناس ضوء الشمس وهي ساطعة فلعلة في النفس لا في حقيقة الشمس .

وما ضر الشمس أن ينظرها عليل .

وما توقفت عن عملها في الكون أو انحرفت عن مدارها في الأفق ولكن الناس يحجبون عنها إذا لفّهم ظلام الليل أو غشيتهم ظلمة القبور !

وهي ممسكة بكوكبهم ، في قانون جاذبيتها بقاء وفي قيامها في الكون حياة ونور .

وبعد فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة وفي الكتاب الذي جاء هداية وموعظة : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ٣١ ، ٣٢] .

« كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴾ [سورة القلم : ٤] .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (١) .
